لم يكنْ ذنبي

رواية

لِينة سيف الدين

obeikan.com

الكتـــــاب: **لم يكن ذنبي**

المـــؤلــــف: **لينة سيف الدين**

تصميم الغـلاف: **أ/ مروة فتحي**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقـم الإيــداع: 14942 / 2015

الترقيـم الدولـي: 7 - 030 - 779 - 977 - 978

الإخـراج الفنـي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 **ش التحرير، الدور** 18**، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة**

هاتف: 0237621688 **- موبايل:** 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

لم يكنْ ذنبي

رواية

لِينة سيف الدين

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلى كل من شاء اللّه أن تمتلئ صفحات حياته بسطور من وجع، فأضاف الناس إليها سطورًا من الأذى والتجريح !

كونوا أقوياء

لا تسمحوا للآخرين بإقناعكم بتلوثكم بذنوب لم تقترفوها

تمسّكوا بطهركم..وسيأتي يوم تُنصفون فيه

حتى وإن كان من أيام الآخرة!

لينة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

برد فنجان القهوة الذي لم تمسسّه شفتاه ولم تبرد الحمّى التي أشعلتها ثورته بداخلي بعد، لا زلتُ أُحدق في الفراغ ببلاهةٍ غير عابئةٍ بعشرات الأعين الفضولية التي بدأتْ تتابعني مذ صفعني بكلماته الناريّة ورحل تاركًا إيَّاي في خلوة بغيضة مع خيبة كبرى.

لستُ حديثة عهد بخيبات الأمل.. لي معها تاريخٌ حافلٌ سقطتْ فيه أحلامي الصغيرة أمام عملاق الواقع، لكنني فقط لم أضع الخيبة في حساباتي اليوم.. توقعتُ استنكارا، اعتراضا، رفضًا...كنتُ مستعدة لكل هذا وأعددتُ مخططًا طويلاً لمواجهته، لكن الشرر الذي تطاير من عينيه ولسانه كان

obeikan.com

أكبر من مخططاتي بكثير.

حزينة جدًا!

أشعر أن الحزن يغطي كل ما حولي.. جدران المقهى، طاولاته، وجوه النادلات وحتى فنجان قهوته المهمل..

حزينة بحق... ليس لأنها المرة الثانية التي يفشل فيها ما ظننته مشروعَ زواجي، وليس لأنني قررت الآن أنها ستكون الأخيرة، ليس لأنه تفنّن في إيذائي بكلماته وأطلق تلميحاتًا كثيرة تشكك في أصل قصتي وترمي لأنني أحتاجه فقط كي يساعدني على دفن فضيحةٍ قديمةٍ وتكوين صورة جديدة مشرفة عوضًا عنها.

لم يؤثرّ بي كل هذا فأنا أتوقعه من كثيرين، المشكلة فقط أنه لم يكن منهم.. ظننته مختلفًا، ظننته سيكون سندي.. ظننته سيأخذ بيدي ويشدّ عليها من أجل قضية ستصبح قضيته كما هي قضيتي، لكن يبدو أن كل ما هو جميل بداخله ليس كافيًا لتقبل الأمر!

تبًّا للعناوين العريضة التي تسكن الناس وتأبى أن تشرح نفسها بدواخلهم؛

opeikan.com

فيقدسون المفاهيم السامية دون وعيٍ بما تعنيه حقًّا، ينادون بالإنسانية ولا يبذل المرء منهم أدنى جهد ليثبت للعالم أو لنفسه على الأقل أنه إنسان بحق.

×××××

وجدتُ نفسي أمام بيت الخالة «سعدية».. بيتٌ قديمٌ بدأ يغوص في قاع حيّ تتنوع مبانيه في تناقضٍ كبيرٍ يجعلك لا تستطيع أن تقرر إن كنت في منطقة شعبية أم في منطقة راقية؛ فهنالك بيوتٌ عتيقةٌ متهالكةٌ كهذا البيت تُجاورها بيوتٌ شاسعة المساحات وأخرى من عدة طبقات... الرابط الوحيد بين هذه المنازل هو الشوارع الترابية المهملة التي تقف عليها... الشوارع التي يُطوّقها الظلام بمجرد غياب الشمس لضعف الإنارة فيها أو انعدامها.

تخرج من منزلك في السابعة مساء فتُشعِرك عُتمة الشارع أنها الثالثة صباحًا، يكاد الظلام يبتلعك لولا الأنوار المتسربة من المنازل والتي يقضي عليها انقطاع التيار الكهربائي في بعض الأحيان! إنها هي ذات الشوارع غير

المسفلتة التي تهلك السيارات.

يُؤسفني أنني لا أصف هنا حيّا في منطقة عشوائية أو نائية بل هو حي في قلب الخرطوم الحزينة التي يفترض بها أن تكون أجمل بقعة في خريطة بلادي.. وكم يؤلمني أن أتذكر أن الخريطة التي تعلمتُ رسمها في المدرسة قد تبدّلت الآن بعد أن اقتُطع جزءٌ منها وأُلقي بعيدًا عن بقية الأجزاء!

يؤلمني السؤال: من كان يملك هذه الأرض ليملك حق التخلي عن جزء منها ؟!.. ومنذ متى يتخلى المُلاك أصلاً عن أراضيهم ..لا ريب أنهم يحرصون على كل شبرٍ في ممتلكاتهم، لكن ربما يتخاذلون في الدفاع عما وضعوا أيديهم عليه من أملاك الغير غصبًا...فحتى الجزار لا يرتضي سلب جزء سليم من ذبيحته بلا وجه حق!

يُؤلمني التفكير بحال رجال ونساء أُجبِروا على ترك بيوتهم وأشغالهم في عاصمة بلادهم بدعوى أنهم لم يعودوا مواطنين، وأنه قد تم اختلاق دولة أخرى لتضمهم وعليهم أن يبدأوا فيها من الصفر، يلزمهم اجراءات ووثائق في حال أرادوا البقاء في وطنهم الذي لم يعرفوا لهم وطنًا غيره!

يُؤلمني التفكير بالأطفال الذين تركوا مدارسهم وأصدقاءهم هنا رغمًا عنهم، يؤلمني التفكير بحال بعض السّذّج الذين تم غسل أدمغتهم وإقناعهم بأن الجنة ستفتح لهم أبوابها في الجنوب بمجرد أن يُمحى الجنوب من خريطة بلادٍ سيظل ينتمي إليها رغم أنف كتب الجغرافيا أو كتب السياسة!

طرقتُ الباب الحديديّ الصدئ ومضتْ ثوانٍ حتى أطلّتْ بوجهها الطيب الموشوم بحزنٍ قديمٍ رغم الابتسامة التي لا تفارقه، هذه هي الخالة «سعدية».. ستينية سمراء، قصيرة القامة بجسدٍ يميل إلى الإمتلاء .

استقبلتني بترحابٍ كبيرٍ كما هي عادتها، كانت تحفظ سؤالي المعتاد وتُبادرني بإجابته كلما رأت ذات اللهفة في عينيّ:

– «براءة بخير يا ابنتي، تناولتْ طعامها وغفتْ منذ قليل»

أسرعتُ إلى غرفة «براءة»، دسستُ نفسي في فراشها.. قبّلتُ جبينها الصغير وربتُّ برقة على شعرها الحريري الفاحم وبدأتُ في تحصينها من شر الإنس قبل الجن.

مضت دقائق قبل أن تفتح عينيها الناعستيْن وتهديني ابتسامتها الآسرة

هامسة بجذل:

- «ماما»!

طوّقتها بذراعيّ وفوجئتُ بدموعي تنهمر رغم مقاومتي، أزاحتْ رأسها عن صدري متسائلةً بكلمات طفولية غير مترابطة عن سر حزني.. أقنعتها أن رأسي يؤلمني فقط وسرعان ما بدأت صغيرتي الطيّبة في لعب دور الأم لتربت هي على رأسي.

كم تُريحني لمساتها... وكأن تعويذةً سحريةً نقشتْ على كفّها الصغير ليزيح عنّي تعب سنواتي الخمس وثلاثون في ثوانٍ خمس.

يزداد يقيني كل يومٍ بأن حاجتي لهذه الطفلة تفوق حاجتها إليّ بكثير.

تحتاج أن أحتضنها لسنواتٍ معدودةٍ حتى تكبر بسلام.. وأحتاجها لما تبقّى من عمر حتى لا يستسلم قلبي لوحدته وفراغه فيشيخ وأستحيل جسدًا يمشي بين الناس فقط لأن رصيده في الدنيا لم ينفد بعد.

أحتاج ابتسامتها، أحتاج نظرة الامتنان في عينيها اللامعتيّن كلما أسعدتها بشيء بسيط كسماحي لها بوضع قدميها الصغيرتين في حذائي ذي الكعب

العالي أو العبث بأدوات زينتي..!

تُعيدني طفولتها إلى بقايا الطفلة الكامنة بداخلي.. إلى شغفي بالحياة وبراءتي أمام كل ما يُلوث الدنيا من حولي..

كثيرًا ما يسخر الكبار من البساطة التي تجعل الطفل فرحًا بمباهج صغيرة كإهدائه قطعةً من الحلوى أو مشاركته قصة جميلة أو حتى مجرد ابتسامة.. لكنني أظن أن الذين كبروا على الشعور بمثل هذه التفاصيل هم من يستحقون السخرية أو بالأحرى يستحقون الشفقة، فالذي لا يجد سعادته في التفاصيل الحانية التي تجود علينا الحياة بها من حين لآخر لن يجدها فيما يظنه شيئًا عظيمًا

ليتهم يعرفون أن حاجتنا كبشرٍ إلى فتات حبٍّ يوميّ تشبه حاجتنا إلى التنفس.. وكلما استغنى المرء عن الحب بكافة أشكاله فهو يفقد شيئًا من بهاء روحه ويقترب أكثر من كونه مجرد جسد خاوٍ.. يقترب من النظرية المقيتة التي تقول أن الإنسان مجرد حيوان ناطق!

عادت «براءتي» - كما أحب تسميتها- إلى النوم وعدتُ لتأمل وجهها الذي

يُقال عن أشباهه عادة «ملائكي»!...

أظن أن المرأة التي وضعتها لم تُكلف نفسها عناء النظر إلى هذا الوجه.. لو فعلتها لما تخلّت عنه أبدًا، ربما توفيت بعد الولادة.. ربما أرغمها أهلها على التخلص من الطفلة.. قاموا باختطافها مثلا.. ربما.........

أُرغم نفسي على إيقاف سيّل أفكار أدرك أن لا جدوى منه، ورغم ذلك فكثيرًا ما يتدفّق في ذهني.

المهم أن صغيرتي كانت محظوظة بي كما كنت محظوظة بها، أثق أن اللّه كتب لها معي قدرًا مختلفًا عمن يشابهونها في ظروف ولادتهم؛ ابتداءً من الاسم الجميل الذي اخترته لها عوضًا عن الاسم العجائزي الذي أُطلق عليها في دار الرعاية!

×××××

ساعة هاتفي المحمول تشير إلى السادسة والربع مساءً.

بعد ربع أو ثلث ساعة ستبدأ والدتي في القلق وستهاتفني!، اعتدتُ إخبارها كلما نويت التأخر عن موعد عودتي إلى المنزل للغداء وقد فاتني الأمر

obeikan.com

اليوم..

بدأتُ أحاول النهوض استعدادا للرحيل لكن ذات اليد التي كانت تربت على رأسي أخذتْ تستبقيني رغم غرق صاحبتها في النوم، لو تعلمين يا صغيرتي كم أود البقاء بقربك، اليوم بالذات أحتاجك كثيرًا .. أحتاج أن أتذكر بجانبك أن الزواج ليس شرطًا لسعادتي وأنني لن أكون تعيسة لمجرد أنني لن أتزوج، فأنا امرأة مستقلة يسعُها أن تعيش وتسعد، بل وتحاول إسعاد الآخرين أيضًا دون أن تكون مرتبطة برجل، أي بإنسان عادي مثلها!

راودتني فكرة مجنونة ودونما تردد شرعتُ في تنفيذها...

هاتفتُ والدتي وإدعيتُ أن زوج صديقتي «رشا» قد سافر منذ أسبوع وأنها تحتاجني لإيصالها إلى المستوصف؛ فابنها مريض جدًا منذ البارحة، وبما أن منزل «رشا» يقع في منطقة بعيدة عن منزلنا، ولأن الوقت سيتأخر على أن أستطيع القيادة بمفردي فإنني سأضطر إلى المبيت هناك!

تمتمتْ أمي بدعوات الشفاء للمريض المزعوم وبعثتْ بتحاياها لوالدته لكن نبرة صوتها أخبرتني أنها غير راضية عن مبيتي خارج المنزل ..

هكذا هي أمي..

تتجنب إغضابنا قدر المستطاع... تحاول ألا تقول إلا ما يرضينا فقط، هناك بالطبع استثناءات قليلة تتعلق بالأمور التي تراها هي كارثية، والتي كان من ضمنها مجرد فكرة أن أكفل «براءة»...

في ذلك اليوم شعرتُ أنني لا أعرف أمي..

بدت لي كامرأة قاسية تحاول بتر يد امتدت لتنتشل طفلة بريئة من غياهب واقع لن يفرز إلا مستقبلا مظلما..

كأمٍّ غير متفهمة لاحتياج ابنتها - التي تخطت الثلاثين عامًا - للأمومة..

كفردٍ سلبيٍّ لا يترفع عن مجاراة القواعد المتجبرة، الفاضحة في تخلّفها لمجتمع يرفض أن يتغير.

أسمعتني أمي ليلتها ما لم أتخيل أن أسمعه منها ذات يوم..

(سيظن الجميع أن ابنة الحرام هذه هي نتاج فضيحتكِ أنتِ)..

(ستنكسين رؤوسا لم تنحنِ من قبل قط)..

obeikan.com

(لو عرف والدكِ بالأمر فستكونين السبب في موته وحينها لن أسامحكِ أبدًا)..

(ما ذنب أخواتكِ وعائلاتهن، ستلحقين بهم جميعًا وصمة عارٍ لا تمحى)...

(إنسي أمر هذه البنت أو انسي أن لكِ أمًّا وأهلاً)

تحدثتُ في الأمر لمرة واحدة لكنني بقيتُ أسمع تلك الجمل لعدة أيام تلتْ، وذات يوم أضافتْ أمي جملة جديدة بصوت متهدج :

«لو كان أخوكِ هنا لما فكرتِ في فعل هذا بنا»..

قالتها وانخرطتْ في البكاء كما هي عادتها كلما أتتْ على ذكر أخي «عثمان» الذي يشكل أعمق نقطة ضعف وأعرض خط أحمر في حياتها..

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني

«عثمان» هو الذكر الوحيد والولد البكر بين أربع إناث مما منحه قدسية خاصة عند أمي، وللأسف فقد منحها بدوره خيبة أمل خاصة أيضًا....

حينما تعطي أحدهم أكثر مما يستحق بكثير فلا تتوقع أن يجازيك بما تستحق.

منذ خمسة عشر عامًا سافر «عثمان» إلى دولة خليجية بغرض العمل، ولم يكن هذا بحد ذاته منطقيا.. فعادة ما يغترب الشباب لتحسين أوضاعهم المادّية، أما هو فقد كانت سيارته هي هدية نجاحه في المرحلة الثانوية

obeikan.com

وتبعتها شقته الفارهة كهدية التخرج الجامعي ...

لم ينتظر أحدهم شيئًا منه يومًا.. ولم يكن هو ليمنح أحدهم شيئًا.. كان نارا تتلهف لابتلاع كل ما يقدم إليها دون أن تُخلّف وراءها شيئًا سوى الخراب.

لم يلتفتْ لتوسلات أمي ولا لنقاشات أبي، عزم على الرحيل، وكنا - نحن الفتيات- نشعر ببهجةٍ خجولةٍ حيال ذلك.. فقد كان «عثمان» واحدًا من مُنغصات الحياة منذ صغرنا.. كان ضيقنا منه يشبه ضيق الأطفال من موعد الدواء أو من عُطل التلفاز في وقت عرض مسلسل الرسوم المتحركة!

في طفولته كنا نضطر للتنازل عن أفضل ألعابنا له كلما رغب بذلك وفي مراهقته كنتُ مضطرة للتناوب مع أختي على حلّ واجباته المدرسية رغم أنه كان أكبرنا!

الهاتف كان تحت تصرفه ولا يستخدم إلا بعد أخذ الإذن منه كما هو الحال عند الخروج لزيارة بنات الجيران أو شراء أي غرض من الدكان المقابل لبيتنا.

أستغرب أننا لم نكن بحاجةٍ للاستئذان منه كي نذهب إلى المدرسة!، كان

يستمتع بدور القائد المتسلط والذي يعيشه تحت رعاية أمي الكاملة، فكل من تضجر «عثمان» بمخالفتها لأمرٍ من أوامره السامية تعد في نظرها قليلة أدبٍ لا تبجل شقيقها الأكبر!

وبالنسبة لأبي فإن أي شكوى تقدم من طرفنا أو من «عثمان» أو حتى من أمي – أيًا كان مضمونها – ستكون سببًا من أسباب زيادة صداعه النصفيّ المزمن، ونوعًا من أنواع عدم رحمتنا، وعدم تقديرنا لجهوده المضنية في العمل ليلاً ونهارًا!...

وكان ذلك الشقيّ يملك من الذكاء ما يجعله يخفف من حدة تصرفاته بل ويدّعي مودتنا ويتملقنا بهدايا سخيفة وعبارات إطراء متكلفة كلما أحسّ أن أمي بدأت تشفق علينا وتميل إلى جانبنا ولو قليلاً.. مما كان يعيدها بقوة إلى مفهوم الأخ الأكبر الذي يعرف كيف يخلط حنانه بحزمه!

وهكذا كنا مضطرين لعقد هدنة طويلة المدى مع «عثمان» كي تسير حياتنا على ما يرام لكن هذا لم يمنع إضافة رصيد لا بأس به من الإهانات إلى ذاكرة كل منّا؛ صفعة لأنكِ تأخرتِ في منزل جارتكِ حتى السادسة وثلاث

obeikan.com

عشرة دقيقة بينما كان الإتفاق ينص على أن تكوني في المنزل في تمام السادسة.

تمزيق الرواية التي استعرتها من صديقتكِ بدعوى أنها غير أخلاقية والسبب الحقيقي هو أنكِ رفضتِ إعارته إيّاها لعلمكِ أنها ستظل حبيسة خزانته حتى تصفرّ أوراقها علمًا بأنه كائن لا يقرأ أصلاً!، حرمانكِ حضور حفل زفاف واحدة من أعزّ صديقاتك لأن «عثمان» علّق على ضيق فستانك فتأففتِ وأجبتِه بطريقةٍ غير مهذبة..

اعتذرتِ..عبّرتِ عن خالص أسفكِ وسقطتْ دموعكِ توسّلا وأنتِ تطلبين منه أن يختار بنفسه الفستان الذي ستخرجين به، لكن هل تستحق من أغضبتِ «عثمان» أي شفقةٍ أو تسامحٍ؟

بوسع كل واحدة منّا أن تكتب كتابًا عن مواقفها الأليمة مع ذلك الفتى الذي أفسده الدلال كليًا.. لذا فقد كان شعورنا عند رحيله يشبه شعور شعب قرر حاكمه الجائر التنازل عن العرش فجأة، بهجة عارمة أجمل ما فيها أنها كانت أكبر من أن تخطر على باله فضلاً عن أن تشكل أمنية بالنسبة له...

opeikan.com

ولدهشتنا فقد اشتقنا لـ»عثمان» كثيرًا، لا أقول أننا افتقدناه.. فالفرق كبير بين الكلمتين..

كان على تواصلٍ دائمٍ بنا خلال السنة الأولى في غيابه.. بدأ التواصل يقلّ في السنة الثانية ثم انقطع تمامًا في منتصف السنة الثالثة، لم تكن التقنيات الحديثة قد مارستْ دورها في ربط الناس حول العالم بعد، كان من السهل أن يختفي شخص ما من حياتك متى ما أراد ذلك...

امتلأتُ وأخواتي بقلقٍ ممزوجٍ بشعورٍ عميقٍ بالذنب بسبب الفرحة الآثمة التي زارتنا عند رحيله، شعرتْ كل واحدة منّا أن الأقدار استجابت للعَناتها هي بالذات ولقّنتْ «عثمان» درسه القاسي والذي ربما يكون قد أرداه قتيلاً.

غدتْ الذكريات الجميلة الشحيحة التي تركها لنا تمثّل سياطًا تُلهب ضمائرنا وتجعلنا نتمنى أن يعود بأيِ ثمنٍ حتى وإن كان تنغيص الحياة مجددًا.. كان لديّ يقين بأنه يرقد في قبره فما من سبب يجعله يفعل هذا بأمي مادامتْ الروح تدبّ في جسده.

أمضتْ أمي سنة ونصف السنة من حياتها في البكاء على أطْلاله.. تبكيه

تارة كمَيِّتٍ، وأخرى كسَجينٍ مظلوم في بلاد الغربة، وثالثة كفقير مُعدم لا يملك حتى ثمن الاتصال بأهله ولو لمرة واحدة خلال سنة ونصف!

ما أسّذجنا حينما نصرّ على اختلاق الأعذار لأحدهم!

ذبلتّ سريعا، جسدها الممتلئ فقد أكثر من نصف وزنه بعدما جافاه الزاد إلا قليلا وغزته الأمراض من كل صوب وحدب، حلّت على جمال عينيها هالتان سوداوان عوضا عن سواد الكحل الذي لم تكن تُرى من دونه، حتى ثيابها الأنيقة التي كانت حديث قريناتها اختفت عن الأنظار وطواها النسيان، لأن أمي فقدتّ رغبتها في أي نشاط اجتماعي سوى محافل العزاء!، لقد كبرتّ عشر سنوات في سنة ونصف.

×××××

استيقظتُ ذات ليلةٍ شتويةٍ على صوت بكائها مصحوبًا بشهقاتٍ عميقةٍ، تملكني الذعر.. فلطالما بكت أمي ولكن ليس بصوتٍ يوقظ النيام... ظننتُ أن الخبر المشؤوم قد وصلها.. أرشدني صوتها إلى الصالة حيث كانت تجلس.. تقدمتُ نحوها بحذرٍ حتى التقى وجهَانَا..

obeikan.com

فوجئتُ بابتسامتها وهي تغالب نشيجها وتهرع إليّ، تجذبني إلى حضنها لتخبرني بصوت يرتجف فرحًا أن «عثمان» هاتفها منذ قليل!

«أين كان ؟!»

يبدو أن برودي الذي لم يحاول إخفاء نفسه أغاظ أمي كثيرا، صوّبتْ نحوي سهام عينيها الدامعتين قائلة بصوت حاد ولهجة معاتبة:

«كان يجدر بكِ أن تسألي عن أحواله، ألا يعنيكِ أمره ؟ ألم يكن هذا المفقود بأخ لك؟»

أنبأتني رجفة صوتها وهي تنطق عبارتها الأخيرة بموسم جديد من دموعها:

«أمي..تعلمين أنني كنتُ قلقة عليه جدًا.. ولكن بما أنه هاتفكِ الآن فهذا يعني أنه بخير، لم يمتّ على الأقل!، أتوق فقط لمعرفة العذر الذي يسمح لشخص حي بالانقطاع عن أمه طيلة هذه الفترة .....»

قاطعني مجيء أبي بعينين نصف مغمضتين، استقبلته أمي بزغرودة طويلة لم يقصّر من مداها سوى نهرةٍ منه !

أخبرتنا أمي فيما بعد أن السيد «عثمان» كان يعاني من بعض المشاكل في

obeikan.com

العمل وأن وضعه لم يكن مستقرًّا، لذا فلم يرغب في إزعاجنا بهمومه!

يؤسفني أن أمي خانت ذكاءها المعتاد وسمحت لعقلها بالاقتناع بهذا الهراء..

يا إلهي! كم تسمح الأمهات لقلوبهن المنهكة بتصديق أكاذيب مُنهكيها الصغار ..!

ذلك الإتصال كان أحد الأسباب القليلة التي حرّكت صمت أبي وقضت على لا مبالاته.. فبعد أن كان يكتفي بالحوْقلة كلما ذكر «عثمان» صار يعبّر بصراحة عن استيائه من ولدٍ أناني متحجر القلب.

كم كان استنتاج أبي متأخرا !

أصبح «عثمان» بعد ذلك على إتصال شبه شهري بنا أو على الأصح بأمي، قال لها ذات مكالمة أنه يفكر بتغيير محل إقامته.. ثم غاب صوته عنها لسبع أشهر تلتْ!

هذه المرة بدتْ أمي أكثر جلدًا وصلابة، اختفتْ أصوات البكاء وانهمارات الدموع أمامنا على الأقل وناب عنهما حزنٌ ما عهدته في عينيها من قبل.

obeikan.com

كنتُ ألعنه في سرّي كلما رأيتها سارحةً في ملكوته.. تظلل عينيها غمامة ذلك الحزن العتيق.. والتي يُخيّل لي أنها باتت تفصل بين نظرها وبين كل شيء في الدنيا سوى طيف «عثمان»...

لقد احتكر كل شيء في حياتها منذ صغره..دلالها وفخرها وآمالها الكبرى.. وحزنها العميق

هاجر «عثمان» إلى كندا، تزوج من أرملة كندية تدعى (كريستينا).. وهما متفقان على عدم الانجاب.

هذا هو كل ما عرفناه عنه منذ عودته إلى التواصل الهاتفي والذي لايزال منتظما حتى الآن بمعدل مكالمة شهرية قد تزيد إلى مكالمتين في الشهر أو تتقلص لتصبح مكالمة واحدة خلال شهرين.

ولا يزال الحزن يستوطن أمي.. لم تفلح أي ثورة من ثوراتنا في طرده، لقد سمح فقط لأشياء أخرى بمشاركته عرشه.. اليأس وخيبة الأمل وشيء من الغضب المكتوم الذي تنفّس عنه من حين لآخر فقط مع الذين لا يجرؤون على شتم «عثمان» ولعنِه أمامها!

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث

« رشا..»

– أهلا بالعروس!

– ليس بعد الآن يا عزيزتي!

– ما ذا تعنين؟

– ......

– لا...لا تقولي أنكِ فعلتها وأخبرته يا مجنونة!

– إلى متى كنتُ سأخبئ عنه شيئًا كهذا؟! لا بد له أن يعرف عاجلاً أو آجلاً

obeikan.com

- أنتِ مجنونة ! أضعتِ الرجل من يدكِ.

ضحكتُ ساخرة فقالتْ «رشا» بحدّة «لا تنكري أنه كان يعجبكِ»

أجبتها بلا مبالاة أجيد إدعاءها «كان..أي فيما مضى يا رشا»

صاحتْ متضجرة «كان يمكنكِ أن تنتظري قليلا...»

قاطعتها «تعنين حتى يقابل أهلي ويتم عقد القران فيصعب عليه التملص من رباطنا أو بالأحرى يصعب ذلك عليّ أنا.. فاضطر للتخلي عن براءة في حال رفضه لوجودها في حياتنا»

- لم تكوني لتتخلي عنها، كانت ستظل عند الخالة سعدية!

- وإلى متى ستظل بعيدة عني؟

تعرفين كم أكره الحلول الوسطى، إما أن تكون الطفلة طفلتي حقًا أو لا تكون طفلتي أبدًا.

- و هل تبدو كطفلتكِ الآن ؟

يبدو أنها استشعرت مدى الوجع الذي أدخلتني فيه كلماتها الأخيرة فقالت

في محاولة لتسكينه:

« سارة يا عزيزتي..أعرف أنكِ أحببتِ الطفلة وجعلتِ منها قضية لكِ لكنها قضية شائكة... ستكونين وحدكِ وسيقف الجميع في وجهكِ كقضاة قساة»

حاولتُ تغيير الموضوع فأنا منهكة بما يكفي، لا يسعني أن أضيف إلى ذهني مسمارًا جديدًا وأشجع الآخرين على طرقه.

« أظنكِ تؤمنين مثلي بالقسمة والنصيب، لو كان ذلك الرجل قدري لما انتهت حكايتنا عند هذا الحد»

- معكِ حق!

صمتٌ.. فأضافتْ بمكر لحثّي على رواية التفاصيل:

«على كل حال لو كان رجلا جيدا لرحل برقيّ»

ضحكتُ بشدة وشاكستها قائلة:

«و من قال أنه لم يرحل برقي أيتها المحتالة!، لكن تخمينك في محله..

لقد استقبل الأمر بضجة كبيرة، أهال عليّ الاتهامات ثم تركني في المقهى ورحل»

- الحقير!

- ليس حقيرًا يا رشا، إنه رجل عادي فحسب..

ليستْ غلطته أنني افترضتُ أن رقيّه وحسن أخلاقه سيجعلان منه نموذجًا فريدًا، بالمناسبة ..لقد بعث لي برسالة اعتذار وطلب أن نلتقي مجددًا لمناقشة الأمر»

شهقتْ بفرح:

« إذن فهنالك أمل»

- لا !، رددتُ على رسالته برسالة أقول فيها أنه لا جدوى من اللقاء إن كان سيشترط عليّ التخلي عن الطفلة»

- وماذا كان رده ؟

تلوتُ عليها رسالته القصيرة الناعمة كما وصلتْ إلى هاتفي :

(إنه قراركِ وأنا أحترمه لكنني لا أستطيع أن أكون جزءاً منه، أحببتكِ كثيرًا ودعوتُ الله أن يجمع بيننا.. لكن يبدو أن لحظة الفراق حانت، أتمنى لك التوفيق والسعادة)

علّقتْ بتأثر واضح:

«يبدو أنه أحبكِ فعلا يا سارة»

– لا أريد رجلا يحبني بقدر ما أريده سندًا لي.

– ربما تسلل هذا الشعور إليه، لا يسهل على الرجل الحقيقيّ التخلي عن امرأة شعر بحاجتها العاطفية الملحّة إليه وأظنه افتقد هذا معكِ لكن ذهنه لم يكن مدركا للأمر، وحينما أخبرته بقصة براءة عثر على الحلقة المفقودة.

– أظنكِ على حق، كان يمهد لقصة حب بينما كنتُ أخطط لمشروع زواج ناجح فحسب.

– لكنه كان سيراهن على حبكِ له بعد زواجكما لو لم تظهر قصة براءة على السطح!

obeikan.com

– تعرفين أنني كنت أبحث في مشروع الزواج عن أبٍ لبراءة قبل كل شيء.

عرفتُ أنها ستعترض على جملتي الأخيرة فأسرعتُ أقول:

«لا جدوى من تحليل كل هذا الآن يا عزيزتي، كانت قصة قصيرة وانتهت.. لا أعتبر نهايتها مفجعة لكنها فقط مخيبة للآمال بعض الشيء»

– كانت النهاية ستختلف لو كانت مشاعركِ نحوه مختلفة..وأظنها كانت ستختلف لو لم تكوني رافضة الخروج من الماضي، تفهمين جيدًا ما أعنيه...

أسرعتُ بتغيير مجرى الحديث فقد بدأتْ «رشا» في تعذيبي من حيث لا تحتسب!

يُشكل الماضي عادة الوحل الذي يعلق به الآخرون رغم إرادتهم ويسعون جاهدين للفكاك من دبقه.. أما بالنسبة لي فهو شيء آخر تمامًا.

هو زينة حياتي

صحتُ فيها...

«كفي عن الفلسفة ودعيني أخبركِ بما هاتفتكِ من أجله فقد بدأتْ أذني

obeikan.com

تؤلمني!»

أجابتني بدهشة بدتّ جلية في صوتها:

«وهل هناك ما هو أهم من فشل مشروع زواجك الثاني كما تسمينه؟»

- لقد كذبتُ على أمي يا رشا، كم أكره نفسي في المرات القليلة التي أضطر فيها لفعل ذلك!، إدعيتُ أنني سأمضي الليلة في منزلكِ على اعتبار أن زوجكِ مسافر وابنك مريض»

قالت بلهجة تأنيبية

«وإن لم يخب ظني فأنتِ الآن مع براءة !»

أجبتُ بمرح وأنا اتأمل «براءة « المستغرقة في تلوين بعض الرسومات الكرتونية

« ألا تستحق هذه الحلوة مغامرة كتلك؟! «

لم تتفاعل مع مرحي بل أجابتّ بضيق:

«تتصرفين بحمق كبير، يشبه تهوركِ تهور مراهقة جامحة لا تستخدم

obeikan.com

نهائيا ما يسمى بعقلها»

شعرتُ لوهلة أنها تتقمص شخصية أمي تعذيبًا لضميري الذي سمح لي بالكذب عليها منذ قليل، استسلمتُ لذلك :

«حسنًا!.. يبدو أنني اخطأت!، لكن باستثناء الكذب على أمي ما هي المشكلة فيما حدث ؟»

–المشكلة يا عزيزتي هي أن ألسنة الناس لا ترحم.

– لكن ماذا سيقول هؤلاء الناس إن اكتشفوا أنني قضيتُ الليلة في منزل عجوزين؟!»

– عجوزان وطفلة !

– ماذا يعني هذا ؟

– يعني أن والدتكِ كانت محقة يا سارة حينما خشيتِ أن يظن الناس أن تعلقكِ القوي ببراءة ليس مجرد تعلّق فتاة طيبة بطفلة ترغب في كفالتها!

×××××

obeikan.com

غريب أمرنا نحن البشر.. نخشى بعضنا البعض بشكل مرضيّ، نقرر أحيانًا أن نتجاهل حقيقة كوننا جزءاً من الناس لنتذرع بذلك الخوف الأحمق منهم فنختلق أعذارًا لضعفنا وجبننا وهشاشة إرادتنا.

بينما نتجبر في أحيانٍ أخرى ونمنح أنفسنا سلطة (الناس) لنوهم أنفسنا بأحقيتنا في تقييم تصرفات الآخرين وتحليل كل ما يصدر عنهم من قولٍ أو فعلٍ وتصنيفه كخير أو شر.. ليس هذا فحسب بل أنه لا يفوتنا أن ندّعي القدرة على قراءة النوايا والمشاعر.. تمامًا كما نقرأ الأفكار!

كم نحن مضحكون في ثياب الضحايا التي نتدثر بها احتماء من قسوة (الناس)، وكم نحن مثيرون للاشمئزاز في ثياب الجلادين التي نعيش بداخلها دور (الناس) وقد وضعنا على رؤوسنا تيجان السلطة الاجتماعية وحملنا بأيدٍ باردة سياط الحكم على المحيطين بنا.

متى سيسعنا التملص من انفصام الشخصية هذا والتعايش مع بعضنا البعض ككيان بشري واحد متكاتف.. يرحم الضعف المتأصل في ذاته ويعزز من القوة التي يؤمن بوجودها فيه؟؟

متى سيهتم كل منّا بالجزء الذي يخصّه فقط من الناس أي بنفسه التي لن يسأله الله عن أفعال شخص غيرها؟؟

لطالما سألتُ نفسي.. ما الذي يمكن أن يضايق الآخرين في إهتمامي بـ «براءة» ؟

هل هي احتمالية أن تكون ابنتي غير الشرعية؟

ولتكن!

إن كنتُ متورطة بحق فهل يكمن العار في رعاية من أصبحتْ ابنتي كما تفعل كل الأمهات أم في التنكر لها ونبذها كنتاج للخطيئة؟

هل سيستقيم الحال ويُمحى الذنب بالتملص من مسؤوليتي نحوها؟

وهل تضايقهم براءة نفسها يا ترى ؟

ألِأنها ضحية ؟

ألأنها تكونتْ دون إرادة منها في رحمٍ لم يكن مسموحا له باحتوائها؟

ألأنها لم تولد في أجواءٍ من الاحتفاء والزغاريد والحمد والمباركات؟

opeikan.com

ألأنها حُرمتْ كل العطايا التي تجود بها الأم على وليدها وحُشرتْ مع الضحايا أمثالها في مؤسسات تقدم القليل من الرعاية والكثير من الحرمان؟

هل يضايق الناس أن تجد أمًا بديلة تملك ما لم تملكه أمها البيولوجية من قلبٍ رحيمٍ وضميرٍ يقظٍ وظروفٍ ماديةٍ أو اجتماعيةٍ أفضل؟

وهل يضايقهم أن تجد أنثى وحيدة مثلي طفلة تملؤ حضنها الفارغ وتستقبل عاطفتها المكبوتة؟

إن كان الناس يثرثرون بلا قلب ولا عقل فكيف لهم أن يشكّلوا سلطة يحق لها الحد من مساراتي وتغيير قراراتي بل وقناعاتي أيضا؟!

لم أشهر سيفي يومًا في وجه أحدهم.. لم أسل لساني لينبري في تقييم البشر وقياس أخلاقهم ودراسة تصرفاتهم وتوقّع نواياهم... لم أنصّب نفسي يوما كجلادة، لذا فلن أكون المجلودة الخاضعة المسيرة...لا أستحق ذلك ولن أقبل به.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

صوت آذان الفجر يربّت على حواسي بيد من طمأنينة.. تأمّلته أذناي وكأنه يزورهما للمرة الأولى، ونسمات باردة عابقة بعطر الفل تراقص قماش الستارة الواهن ثم تزيحه برفق لتتسلل إلى الغرفة عبر النافذة المواربة التي لم تبخل عليّ برؤية سماء ليلكية لا زال بها أثر لنجوم البارحة.

شعرتُ حينها أن الحياة جميلة، جميلة للغاية.. عيبها الوحيد أن أناسًا لا يستشعرون الجمال يعيشونها!

أدّيتُ صلاتي وخرجتُ للاستمتاع بجمال الصباح في فناء البيت الصغير،

obeikan.com

افتقدتُ رقة الصباحات مذ تركتُ الوظيفة وافتتحتُ محلي الخاص لبيع الملابس والمستلزمات النسائية إذ أتوجّه إليه يوميًا في حوالي العاشرة صباحًا كنوع من قضاء الوقت فقط فأغلب الزبائن يطلّون في المساء.

أخذتُ أسقي الشتلات الصغيرة التي تزيّن الفناء وصوت فيروز ينساب عبر السماعات المثبتة على أذنيّ:

أحبكَ في صمتي الوارف وفي رفة الهدب الخائف

و بي يا ملون عمري إليك حنين الكروم إلى القاطف

حنين الشحارير عند الغروب إلى رحلة الموسم الهاتف

ذرى من ندى والبريق تطل كنهر من الوهج الطائف

يأخذني ذلك الصوت إلى الأيام الجميلة.. إلى الزي المدرسي والحقيبة المثقلة بالكتب.. وسيارة «ياسر» وحكاياته وضحكته وعينيه.. إلى كل شيء يجعلني أبكي حنينا حينما أتذكّره، لم تكن لي أخت تكبرني ولم تكن لـ «ياسر» أخت تصغره لذا فقد كان ارتباطنا قويًا.

مضتّ طفولتي وبداخلي قناعة أن «عثمان» ليس أخي الوحيد، هناك في

obeikan.com

المنزل المجاور أخ ثانٍ..أقرب وأطيب! رغم أنه يعيش مع عائلة أخرى تخصّه وحده..

كل من في أسرتنا كان يعتبر»ياسر» فردًا منها بما في ذلك»عثمان» الذي لا يحب شخصا أو يثق به بسهولة، وهكذا مُنح «ياسر» ضوءا أخضر ليكون عرّابي!

كان فيه شيء.. بل أشياء كثيرة تذكرني بحنان أمي وإهتمامها، لكنه كان يفهمني أكثر من أي شخص آخر.. كنتُ كلوحة خالية من كل شيء بأبيض فطري لم يداخلها سواه فجاء هو ولونني بألوان يملكها وحده حتى لم يعد هناك من هو قادر على تمييز تفاصيلي وفهم خباياي سواه.

أذكر أنني قلت له ذات يوم جملة أضحكتّه كثيرًا : «أنت الراعي الرسمي لحياتي بعد اللّه «، ضحكتُ لضحكه رغم أنني كنتُ جادة فيما أقول.

«ياسر» هو أغلى ما استوطن ذاكرتي على مرّ أعوام طوال...هو من كان يعير نواح طفولتي انتباها ويهدهدني كلما غضبتِ ثم يتمشى بي في طرقات الحي ليعيدني إلى البيت نائمة على كتفه، هو الذي كان يجيب عن أسئلة

obeikan.com

الصغار الملحّة التي يتجاهلها الآباء والأمهات عادةً، هو من قضى ساعات طويلة من حياته وهو يشرح لي دروس الرياضيات التي أفهمها بعد معاناة ...!

هو من استأثر بشغف طفولتي كله...اختصر في ذاته كل المباهج فكان كمذاق قطعة حلوى فاخرة أو لون زاهٍ لثوب للعيد أو قصص متخيّلة مع دمية جميلة.

فيما بعد تذمرتُ كثيرًا حينما عرفتُ أنني سأرتاد ثانوية تبعد عن بيتنا مسافة ليستِ بالقصيرة مما سيعني النهوض في وقت مبكر جدًا للّحاق بطابور الصباح ومما سيعني أيضًا الاكتواء بشمس الظهيرة نهاية كل يوم دراسي... لكن ما حدث بعد ذلك جعل من مشاوير المدرسة أجمل مقاطع حياتي..

كان «ياسر» دبلوماسيا من الطراز الأول.. يعرف مداخل كل ما يريد ومخارج كل المآزق، وهكذا لم يصعب عليه إقناع «عثمان» بمنحه الإذن لاصطحابي كل يوم من وإلى المدرسة التي زعم أنها في الطريق الذي يسلكه إلى عمله.

obeikan.com

سنوات الدراسة الثانوية شكّلت العهد الذهبي في تاريخي القاحل... لا تزال تلك الأيام تشع في ذاكرتي كوهج كبير من فرح.... دقائق اللقاء كانت زادًا يوميًا مشبعًا من السعادة وأوقات قراءة وكتابة الرسائل التي كنا نتبادلها كانت مواعيدا من اللذة اللا نهائية...

و كأن الأقدار كانت تقدم لي تعويضا مسبقا عن فراق بات وشيكا.. كأنها كانت تقول : حاولي الاكتفاء من رجلٍ لا يُكتفى منه..إسرقي من أوقاته ما تستطيعين.. خبئي فُتاته لسنوات جوعكِ القادمة وإطبعي ما استطعتِ من ألوانه في ذاكرتكِ قبل أن يهاجمكِ ما كتبه الله عليكِ من سواد

كان «ياسر» شابّا جميلاً.. طويل القامة وذا جسد رياضي، قمحيّ اللون، واسع العينين وبشوش الوجه، ولم يكمن جماله في وسامته وأناقته اللافتة فحسب، بل كان شخصية مميزة.. طيبة وقوية.. حنونة وحازمة.. متواضعة وواثقة.. عفوية وراقية.. شخصية تفكر بالمحيطين بها قبل أن تفكر بنفسها.. كان إنسانا بكل ما تفرضه الإنسانية على المتسمين باسمها.

خلق «ياسر» بداخلي أشياء كثيرة تأبى أن تموت وأرفض أن أدفنها حية

لأنني أتنفس عبرها، وحده وجودها يحميني من الاختناق... أشياء وضعتْ بصمتها على كل ما فيّ وكل ما حولي حتى صارت حياتي رهنًا لثلاثيّ الذكرى والحنين والشجن..

أشعر في كثير من الأحيان أنني انفصلتُ عن ذاتي وأصبحتُ أنثى أخرى تذكرني به بطريقة أحبها بقدر ما توجعني...

وصلتْ فيروز في أغنيتها إلى المقطع المفضل لدى«ياسر» والذي صار فيما بعد الأكثر تعذيبًا لي ؛ لطالما تمايل رأسه طربًا ولمعتْ عيناه بينما كانت تلك الكلمات تنساب عبر مسجل سيارته في طريقنا إلى المدرسة:

أحـــبـــكَ حـــتـــى يـضــلّ الــغــمــام ويــنــســى الــربــيــع دروب الـتـلال

أحــبــكَ حــتــى يــمــلّ الــصــدى طــواف الــربــى وعــنــاق الـجـبـال

أقـــول أحــبــكَ..مــوجــي حــقــول وجــمّــع شــذى يــا مــطــل الـظــلال

استحالتْ الدموع المتجمعة في عينيّ إلى دفقات ملأتْ وجهي، شعرتُ برغبة في الارتماء بين أي ذراعين لأواجه نوبة البكاء التي تداهمني من حين لآخر

وعوضًا عن ذلك ارتميتُ على كرسي خشبي قديم كان قابعًا بقربي.

حينها أتاني صوت الخالة «سعدية» من مطبخها الصغير وهي تسألني إن كانت «براءة» قد استيقظت كي تعد لها كوب الحليب بالكاكاو الذي تفضله.

×××××

رأيتُ الخالة «سعدية» للمرة الأولى في المصرف الذي كنتُ أعمل به قبل أن أنشئ عملي الخاص، كانت تخلق بداخلي سؤالاً كبيرًا : هل يشحن العوز صاحبه بطاقةٍ كبيرة تجعله قادرًا على تحمل ضغط جسدي أكبر من سنه بكثير أم أن الله وضعنا منذ البدء في الخانات التي تناسب طاقاتنا وقوة احتمالنا؟

كيف تستطيع امرأة في سن أمي أن تحني ظهرها عشرات المرات يوميا لتمسح البلاط الذي تدوسه الأرجل طوال النهار؟

كيف تستطيع تحريك يديها بحركات رياضية رشيقة وهي ممسكة بليف التنظيف على ألا تتوقف حينما تتعب ولكن حينما يتحول لون أحواض الغسيل إلى الأبيض الناصع!

obeikan.com

عرفتُ منها ذات حوار أنها إضطرت للعمل بعدما فقد زوجها القدرة على ذلك بعد حادث مريع تسبب في بتر كلتا ساقيه، وبما أنهما لم ينجبا فلم يكن هنالك بد من أن تفعل هي ما تستطيع فعله كي يتمكنا من ستر شيبتهما على حد تعبيرها ..

ترى ما الذي كان سيتغير في حياة تلك المرأة لو كان لها ابن كـ«عثمان» ؟! أم أن «عثمان» نفسه كان سيغدو مختلفا لو شعر باعتماد والديه عليه ليكملا حياتهما؟

ربما فقد «عثمان»إحساسه بالمسؤولية تجاهنا لأن المسؤولية لم تسند له يومًا ولو في إحضار خبزٍ للغداء!

تناولتُ الشاي مع قطع (اللقيمات) الدافئة على عجل وهممتُ بالمغادرة قبل أن تستيقظ «براءة « وتتشبث بأطراف ثيابي باكية اعتراضًا على رحيلي.

ذلك المشهد المتكرر كان يشعرني بالعجز أكثر من أي شيء آخر، لطالما تمنيتُ أن أحمل صغيرتي إلى بيتنا أو إلى بيت صغير نعيش فيه وحدنا، لكن الواقع يقول أنه لم يكنْ بوسعي الاحتفاظ بها لولا وجود الخالة «سعدية» في

عالمي.

كانت صفقة مربحة ومريحة لكلتينا، ترتاح هي في منزلها برفقة زوجها لتعتني بـ «براءة» مقابل أن أتكفل أنا بمصاريف الثلاثة على أكمل وجه، ترددتُ كثيرا قبل أن أقصد منزلها الذي أعطتني عنوانه إحدى زميلاتي القدامى والفضول يكاد يقتلها، وأظنني لم أكن لأقدم على هذه الخطوة لولا تشجيع «رشا» التي أبدتْ إعجابًا كبيرًا بالفكرة؛ فهي في رأيها تلبي حاجتي العاطفية لطفل في نفس الوقت الذي تلبي فيه حاجة الخالة «سعدية» للمال والراحة وحاجة أمي للستر الاجتماعي الذي تنادي به!

أعرف أن «براءة» تلقى الحب والرعاية الكاملة من امرأةٍ طالما حلمتْ بطفل.. حتى شاخَ حلمها ومات وشاخت هي أيضًا ولم تعد تحلم سوى بالراحة والكفاف، فإذا بالثلاثة يفاجئونها في آن واحد.

أخبرتها منذ البداية أن عرضي هذا يمثل وظيفة لها بالقطاع الخاص وأن المصروف الشهري يمثل راتبها الذي تستحقه بكل جدارة، أعرف أنها سعيدة بالصغيرة حد الدهشة وأعرف أن صغيرتي تحبها كثيرا لكنني أشعر

بالتقصير في حقها وهي التي تعتبرني أمها وتناديني بذلك بينما تنادي الخالة بـ (خالتي) تقليدًا لي!

أفكر دائمًا في التفسير الذي تضعه طفلة في عامها الثالث لغياب أمها التي تأتي من حين لآخر محمّلة بالحلوى والألعاب ثم تغادر فجأة واعدة بزيارة قريبة!

كم أود أن أعيش أمومة كاملة، أريد الغرق في تفاصيل طفلة صغيرة بكل مُتعها ومتاعبها، ضقتُ ذرعًا بمحدودية دوري في حياتها، تعبتُ من وضع الأيدي المكتوفة ومن الشعور بقلة الحيلة، والذي يستحيل إلى شعور عميق بالذنب كلما تذكرتُ كلمات مشرفة الدار بعد قبول طلب الكفالة.

كلماتها ترنّ بداخلي كجرس إنذار لا يكف عن توليد الهواجس:

«إن كنتم ستنتشلونها من حرمان اليُتم لتتعرض معكم للإهمال أو الشعور بالدُّونية فأرجو أن تفكروا مليّا قبل أخذها، وإن كان في ذهنكم احتمال إعادتها مجددًا فلتعلموا أن ذلك سيسبب لها ضررًا نفسيًا هائلاً على المدى البعيد، لا زالت صغيرة جدا، يمكنها أن تكبر وتتكيّف مع واقع العيش هنا لكن

لا يمكنها أن تفهم معنى أن تكون لها أسرة ثم تتخلى عنها بشكل فجائي، ولا يمكنها أن تفهم كذلك سبب أي معاملة سيئة قد تتعرض لها منكم».

لا أعرف لماذا انفجرتُ أمامها باكية، خفتُ أن تحرمني دموعي الفرصة التي جاهدتُ كثيرًا للحصول عليها، شعرتُ أن كذبتي على وشك الانكشاف، فربما تستنتج المشرفة من فرط انفعالي أنني الكافلة فعليًا وليس الخالة «سعدية» كما إدعينا، وهذا لأنه لا يسمح لي بالكفالة كوني غير متزوجة ولا يمكنني كذلك الحصول على موافقة ولي أمري!

لكن أحمد اللّه أن المشرفة تعاطفتْ معي واعتبرتْ بكائي نوعًا من الرأفة بحال «براءة «خصوصًا وأنا أمثّل وجهًا معروفًا في الدار لمواظبتي على زيارتها أسبوعيا منذ سنوات، ربما استنتجتْ المشرفة الحقيقة وقررتْ أنه لا ضيْر في الأمر مادام قانونيًا ولن يعرّض الطفلة لسوء أو يعرّضها هي للمساءلة، وربما استنتجتْ الحقيقة وصمتتْ لأنه ليس لديها ما يثبت صحة شكوكها.

هذا كله غير مهم، كل ما كان يملؤني وقتها - بالإضافة إلى فرحة بحجم

الكون -هو التفكير بمستقبل «براءة»، متى سأمتلك الشجاعة لأواجه أمي والعالم أجمع بأنني إتخذتُ قراري وأنديْتُ حياتي القاحلة بها؟، متى سيسعني أن ألعب دوري كاملاً ككل الأمهات، لا اختلاف بيننا سوى المراحل الفسيولوجية من الأمومة؟

obeikan.com

الفصل الخامس

صالةٌ رحْبة توزعتْ في أرجائها أشكالٌ مختلفةٌ من الأثاث، تتوسطها طاولة طعام ضخمة يجلس عليها شخص واحد هو أمي!

أقبلتُ إليها باسمةً فاتسعتْ ذراعاها مع ابتسامتها لاستقبالي هامسةً

«افتقدتكِ كثيرا يا سارة»

ليس غريبا أن تفتقد الأم ابنتها ولكن ثمة تساؤل يُخلق حينما تحتضنها وتبكي بعد غياب يوم واحد!

حاولتُ ممازحتها تلطيفًا للأجواء لكنها بدتْ جادّة وهي تقول بصوت واهن:

obeikan.com

« كلهم رحلوا، لم يتبقَ لي سواكِ ...

هناك وجع يقرص قلب الأم كلما ابتعد أحد صغارها، وجع يصاحبه فراغ كبير وكأنه قد ثقب القلب»

احتوتْ دهشتي الكبيرة بابتسامة حزنها المعتادة وهي تقول:

«أعرف أنكِ تتعجبين من حديثي، لم أدرس في جامعة ولم أقرأ كتبًا أو أشاهد برامج تثقيفية لكنني عايشتُ ألوانًا من الآلام وصار من اليسير بالنسبة لي الحديث عنها»

- التمسي العذر لأخواتي يا أمي، تعلمين مدى انشغالهن بالأطفال والعمل....

قاطعتني بصوت داخله شيء من البهجة:

«لقد أكرمني الله بكن يا سارة، ما الذي سيسعدني أكثر من أربع بنات بارّات، أفتقد شقيقاتكِ كثيرا لكنها سنة الحياة، أريد منكِ فقط أن تظلي معي بعد زواجكِ»

وجدتُني أضحك وأنا أهزّ رأسي إيجابًا، مدّت يدها إلى طبق الفاكهة الموضوع أمامها وناولتني تفاحة صغيرة وهي تقول مؤنبةً:

obeikan.com

«متى ستأخذين موضوع الزواج على محمل الجد!، أنتِ اليوم شابة فتيّة لكنكِ غدا أو بعد غد مسنة تحتاج إلى رعاية أبنائها».

خطر لي أن أخبرها كم أعلّق آمالاً على صغيرتي الطيبة التي لم ولن أحتاج لرجل كي تضيء حياتي، لكنني تراجعتُ سريعًا وفضّلتُ تكرار واحدة من الجمل التي أستخدمها كلما حادثتني في هذا الأمر:

«هذا هو نصيبي يا أمي، لو كان الله قد قدّر لي زوجًا وأطفالاً لكانوا حولي الآن».

– هذا صحيح. لكنكِ أضعتِ عددا لا يستهان به من الفرص لأسباب واهية.

فرص ؟؟ وكأننا نتحدث هنا عن صفقات تجارية قد لا تتجاوز شراء سيارة أو ثلاجة بأسعار مغرية.

منعني صوتها الجاد من الاسترسال في أفكاري الساخرة:

«على كل حال فلنحمد الله أن الحظ لا زال إلى جانبك؛ فالجميلات بنات العائلات المحترمة محظوظات دائمًا حتى وإن تخطّين الثلاثين، لقد تقدم لخطبتكِ رجل ممتاز بكل المقاييس يا سارة».

obeikan.com

نطقتْ أمي الجزء الأخير من عبارتها كما ينطقون إعلان حصول أحدهم على منصب مرموق أو على شهادة علمية مميزة، وقبل أن أفكر في رد ملائم كانت تجذبني إلى حضنها عنوةً وهي تهمس بصوت جمع متناقضات شتى كالحزم والفرح والخوف والإصرار:

«و أخيرا سأزفكِ يا سارة وأفرح بكِ «

×××××

لا أدري لماذا لا يراودني هاجس الزفاف بزغاريده وثوبه الأبيض كما يفعل مع كل الفتيات اللاتي يصغرنني أو يكبرنني، آخر مرة حلمتُ فيها بنفسي عروسا كانت قبل عشرين عاما في حفل زفاف شقيق «ياسر».

لم نكن نحظى في ذلك الزمان بترف صالات الأفراح التي يلمع كل ما فيها ببريق الفخامة، لم يكن هنالك من خيار للعروسين سوى (الصيوان) الذي يمتد عبر بيوت الجيران معطّلا بمباركة الجميع مساحات شاسعة درج تحويلها إلى قاعات لاستقبال حزن المآتم وبهجة الأعراس.

كل شيء حينها كان بسيطًا وعفويًا، حتى زينة الفتيات كانت خالية من

obeikan.com

التكلف؛ لم نعرف في مراهقتنا أدوات سحرية لتغيير لون الشعر والعينين، لا خصلات إضافية ولا رموش اصطناعية، حتى مستحضرات التجميل العادية كانت مسجلة حينها في قائمة المحرمات على الآنسات خصوصًا إن كان لهن إخوة كـ "عثمان»!

وبصفتي واحدة من الجارات المقربات لأسرة العريس فقد كان من واجبي الإنضمام إلى صفوف الفتيات المشرفات على العشاء، سارعتْ أغلبهن إلى حجز مهمة توزيع الطعام وزجاجات المياه الغازية والابتسامات البلهاء على النساء مما قد يشكّل لكل واحدة منهن فرصة ذهبية لمصادفة والدة زوج المستقبل وإبهارها بالمؤهلات الجمالية التي تظهر جليّة في كل حفل زفاف...

أما أنا فقد كنتُ سعيدة بمكاني بين صناديق المياه الغازية لأزيل أغطيتها المعدنية، وقدور الطعام الضخمة لأضع قطعة من كل صنف في الصحون الورقية المكومة أمامي.

كان» ياسر» يطل علينا من حين لآخر مع أحد رفاقه لملء صينية كبيرة

obeikan.com

بالصحون التي تم تجهيزها ليتم توزيعها على الرجال، وكنتُ أشعر أنه يتعمد الحضور بنفسه كي يراني، أقسم أنه كان يختصّني بأنصاف ابتساماته كلما أطل، كان الزهو يملؤني وأنا أشعر أنه لا يرى سواي من بين جميع الفتيات.

بدأتْ أصوات الغناء وصخب الحفل في الوصول إلينا وبدأ معها تململ رفيقاتي من مهمتنا، ظهر أحد الصبية بعد دقائق ليخبرنا أن بوسعنا الاكتفاء بما حضّرناه والإنضمام للحفل، هرعتُ إلى البيت لارتداء ثوبي الأزرق اللامع ذا التنورة المتوسطة الطول والذي كنت أرتديه للمرة الأولى، وضعتُ وشاحًا بتدرجات اللون الأزرق على كتفيّ ورفعتُ شعري بطريقة ذيل الحصان التي كانت حينها من أجمل وأحدث التسريحات في نظر كل فتاة! كما لم أنسَ ترطيب شفتيّ بمسحةٍ خفيفةٍ من الفازلين بحيث لا يلاحظه أحد!

أفتقد الآن تلك البهجة العملاقة المصاحبة لمسحة الفازلين- في شبه سرقة طفولية- أمام ما تمتلئ به غرفتي من ألوان مستحضرات التجميل التي أضعها من حين لآخر بلا بهجة تذكر!

obeikan.com

يذكرني هذا بالأغنيات التي كنت أنتظر عرضها أو إذاعتها بفارغ الصبر لأحتفظ بكلماتها في ذهني وأسجلها فيما بعد في دفتر خصّصته لأغنياتي المفضلة، واليوم أستطيع الاحتفاظ بكل ما يروقني من أغنيات في هاتفي المحمول لتكون طوع أذنيّ في الوقت الذي أريده، لكنني لم أعد أهتم!

هل كنا نُغرق الأشياء الجميلة بشغفنا لأن نيلها كان صعبًا أم أننا نفقد شيئًا من شغفنا بالأمور الصغيرة المبهجة كلما كبرنا؟

خرجتُ بزهوٍ زاده صوت طقطقات الحذاء الذي أرتديه للمرة الأولى أيضًا، جالتْ بذاكرتي حينها كل الجمل التي سمعتُها من قبل عن قوامي الممشوق الذي يضعني في مصاف الجميلات رغم ملامحي التي أعرف أنها عادية جدًا.

أربكني بريق الإعجاب في نظرات «ياسر»، أشاعتْ ابتسامته رعشة ما في داخلي، اقترب منّي، اتسعتْ ابتسامته أكثر، قال شيئًا لم أسمعه جيدًا وسط زحام الأصوات، لكن يخيل إليّ أنه قال شيئًا يشبه «أنتِ جميلة للغاية»

خالجني شعور غريب بالسعادة والخوف معا بكل طغيانهما، تجاهلتُ خوفي

obeikan.com

الغامض وتشبثتُ ببهجتي حتى وصلتّ حدود السماء، شعرتُ أنني أزف إلى الفرح في ذات اللحظة التي زفتّ فيها العروس وضجتّ بها الزغاريد...

قد يكون هذا هو أجمل مشهد في حياتي لكنه كان آخر مشهد جمعني بـ «ياسر» خلال ذلك اليوم فقد انتقل بعد دقائق إلى ساحة الرقص برفقة أقاربه وأصدقائه، لا زالتّ كل ملامح بهائه مرتسمة في ذهني بوضوح، حتى لون القميص الذي كان يرتديه ليلتها أصبح من الثوابت في ذاكرتي، كلون السماء والرمل والشجر.

تحلقتّ الفتيات حوله في استعراض حركي سافرٍ لكل ما يملكنه من جماليات، وبقيتُ أنا في مكاني كالمشلولة، تذكرتُ»عثمان» بغضب كاد يفجّرني؛ لولاه لكنت أتمايل الآن إلى جوار»ياسر» وأغطي عينيه عن غيري من الفتيات كما يحدث كلما اجتمعنا.

سرعان ما بدأ الجزء العقلاني منّي في تأنيب الجزء الآخر الذي عبثتّ به الغيرة أيما عبث:

(على العموم فأنا لا أجيد الرقص أصلا، ثم أنه من الطبيعي أن يشارك

openkan.com

«ياسر» قريباته فرحتهن بزواج شقيقه، ما الذي سيجعلني لصيقة به طوال الحفل؟ أنا مجرد جارة أدّت دورها الاجتماعي وانتهى الأمر، لا!! أنا لست مجرد جارة..أنا شقيقة «ياسر» الصغرى.)

اختفتْ سعادتي حينما استقرتْ تلك الفكرة في رأسي ولكن خوفي اختفى أيضًا ، هبطتُ من تحليقي الخطر في السماوات السبع إلى أرض ثابتة آمنة، وبدأتُ في الانشغال بمحتويات صحن العشاء الذي ناولتني إياه أختي!

×××××

في طريقنا إلى مدرستي صبيحة اليوم التالي وجدتُني أحوم بكلماتي حول الفتيات اللواتي كن يحُمن حوله في الحفل، كان يملك قدرة عجيبة على قراءة عينيّ ونبرة صوتي؛ لذا فلطالما كان تلميحي الأول هو مجرد تأكيد لظنونه حول ما يجول في فكري، وهكذا لم يندهش حينما تجرأتُ وسألته:

«هل تبدي اهتمامًا بإحدى قريباتك، أعني هل تراسل بعضهن أو تتفقد أحوالهن بزيارات أو مكالمات هاتفية بين الحين والآخر؟»

بابتسامة ذات مغزى لم أهتم حينها بتفسيره أجاب:

obeikan.com

« لا »!!

علّقتُ بجسارة أكبر:

« أُراهن أن واحدة منهن أو أكثر قد فعلتِ ذلك معك»

- لماذا أنتِ متأكدة إلى هذا الحد؟

تلعثمتُ وتدفقتْ الدماء إلى وجهي وأنا أقول:

«لقد كان من الواضح أنهُن معجبات بك»».

- لكن لا تسعني المجاملة بمشاعري ولا يمكنني العبث بأحلامهن الضالة.

- ولماذا تعتبرها ضالة؟

- حينما يُبنى الحلم على مجرد قشور فقد ضلّ طريقه بلا شك.

- قشور؟!

- نعم . المظهر الخارجي هو القشرة التي تغلفنا، والتي لا تكفي إلا لمجرد إثارة الإعجاب، أما الحب فهو يتطلب الوصول إلى لب الشخص..أي روحه وقلبه وعقله، وهذا لم يكن متاحًا لدى أيّ منهن وهكذا يكون الرهان على

obeikan.com

حبهن لي خاسرا، ولا أحب إضاعة وقتي في أشياء أعرف فشلها مسبقًا، هل أبدو مغرورًا؟

أتبعَ عبارته الأخيرة بضحكة آسرة، ابتسمتُ وأنا أقول بخبث:

«بل تبدو فيلسوفًا، لكن ماذا لو أُعجبتَ أنت بقشور إحداهن، هل حدث هذا من قبل؟»

- حدث بالطبع ولكنني تجاهلته.

صعدتْ الدماء إلى وجهي مجددًا ووجدتُني أقول بحدة أربكتني:

«ولماذا تجاهلته؟»

أجاب بابتسامة صغيرة:

«لأن الرجل المأخوذ باللب الساحر لامرأة ما لا تجذبه القشور الجميلة التي تغطي الأخريات..لا سيما وإن كانت قشرتها رائعة كدواخلها «

حملقتُ فيه بلا وعي وقد تصاعد بداخلي الشعور الغامض ذاته، حمدتُ الله أن السيارة كانت قد توقفتْ حينها أمام باب المدرسة.

obeikan.com

شردتُ كثيرا أثناء الدروس وأنا استرجع بذاكرتي تفاصيل ما حدث صباحا، خجلتُ من جرأة أسئلتي وخجلتُ أكثر من جرأة مضمونها والذي لا بد أنه وصله بوضوح (أغار عليك).

قفز إلى ذهني موقف حدث العام الماضي، خرجتُ من المدرسة ذات يوم وبيدي ورقة مطوية، سألني عنها بلا اكتراث فأخبرته وأنا أضحك أنها رسالة حب.

فوجئتُ بالغضب الذي بدا عليه، أوقف محرك السيارة وحدَجَني بنظرة غريبة، كان على وشك أن يقول شيئا، لكنني أسرعتُ وقدمتُ له الورقة وأنا أخبره أنني استلمتها للتو من زميلة قالت لي أن أخاها كان يراني أحيانًا أمام باب المدرسة وأنه أعجب بي ويرجو أن أطّلع عليها.

«و هل ترغبين بذلك حقًا؟»

أدهشني سؤاله وتعابير وجهه حينما طرحهُ، هززتُ رأسي نفيًا لتلك التهمة وأخبرته أنني أخذتها فقط بدافع الفضول، حصلتُ بعدها على محاضرة لم تنتهِ إلا أمام باب البيت، ورغم أنها كانت المرة الأولى والأخيرة التي

يوبّخني فيها إلا أنني كنتُ سعيدة جدا....جدا !

أما الورقة فالله وحده يعلم بما كان مكتوبا فيها فقد مزّقها قبل أن يطّلع أحدنا على محتواها..

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السادس

لا أعرف ما الذي كاد يقتل «رشا» ضحكًا في حديثي، لكنها على كل حال تقول دائمًا أنني مضحكة للغاية حينما أتحدث أو أروي حدثًا ما وأنا في قمة غيظي، ولا شيء سيغيظني بالطبع أكثر من أن أمي بدأتْ تتعامل معي كعروسٍ لرجل لا زال مجهولا بالنسبة لي!

جالتْ بعينيها الواسعتين في فضاء المحل ثم استقرتْ على ثوب سهرة ورديّ ترتديه إحدى دُمَى العرض قائلة:

«سيكون هذا رائعا عليكِ وأنتِ عروس.

obeikan.com

انتزعتْ دعابتها ابتسامتي لكنني وجّهتُ لها نظرةً معاتبة حتى لا تسترسل في مزاح من هذا النوع!

لم تنفجر ضاحكة كما توقعت بل مسحتْ أثر دمعة أسالها الضحك الهستيري على خدها الطفولي الممتلئ لتبدو جادة وهي تقول:

«أرجوكِ فكري في الأمر، ربما يناسبكِ العريس»

هززتُ رأسي أسفا:

«أحيانا أشكّ في كونكِ صديقة عمري التي تعرف عنّي كل شيء، تعلمين أنني لن أتزوج بأسلوب الترشيح هذا؛ أريد رجلاً أنسجم معه، أعرفه جيدًا وأحب فكرة رؤية وجهه كل يوم ثم أتزوجه، بدلاً من أن أراهن على حدوث العكس! لستُ مضطرة لمشاركة كل شيء في حياتي مع شخص لا أعرف عنه إلا الخطوط العريضة فقط».

– لا أرغب في تذكيركِ بأشياء تزعجكِ، لكنكِ أخذتِ وقتكِ في التعرف إلى رجلين من قبل وكنتِ على وشك قبول الزواج ثم اكتشفتِ في المرحلة الأخيرة أنهما لا يصلُحان!

obeikan.com

- ها قد قلتِها بنفسكِ!، اكتشفتُ في المرحلة الأخيرة أن من سأتزوجه كان يخبئ عني أنه متزوج وأب لطفلتين، واكتشفتُ في مرحلة أخيرة أخرى أن من سأتزوجه لا يتقبل فكرة احتضاني لطفلة لا يسعُني التخلي عنها وهذا ما أتوقع أن يتكرر في حال فكرتُ بالزواج مجددا .

لو لم تكن هنالك مراحل في علاقتي بهذين الرجلين لتزوجتُ من أحدهما ثم واجهتُ صدمتي فيما بعد، لا أحتاج لصدمات يا «رشا».. أحتاج لمعرفة كل شيءٍ عمن سأخطو معه خطوة كهذه .

- منطقكِ يغلبني دائما لكنني أخشى أنكِ تتذرّعين به كي تهربي فحسب!

- و ممَّ أهرب ؟

لم تجب.. لكنني لمحتُ نظرتها العميقة للصورة التي تتصدر حائط المحل؛ صورة عتيقة لصبيّ باسِمٍ يحمل على كتفه طفلة تضحك بجذل غير مبالية بما بعثره الهواء من ضفيرتيها.

إنها الصورة الوحيدة التي جمعتني بـ «ياسر» !

×××××

«أنتِ ممن يعشقون تعذيب ذواتهم»

أتذكر جملة «رشا» هذه كلما سرتُ على غير هدًى في طرقات بعيدة لا أعرفها جيدًا وأدرتُ مسجل سيارتي على أغنية أشعر أن فيروز تغنيها لي شخصيًا.

فيروز التي لم ألتقِ بشخص يحبها كما أحبها «ياسر» ...أحببتها من خلاله، أحببتها فيه، وأظنني أحببتُ ذلك العذاب الذي بات صوتها يأسرني فيه مذ غاب صوته، أشعر أنها تحدثني عنه.. بل تذبحني به وهي تغني:

يعود إليكِ عند الليل حين تأوه القصبِ

يسائلُ كيف حال الدار.. كيف مطارح اللعبِ

و يمسح دمعةً سبقتكِ رغم تمنّع الهدبِ

رسائله منازله .. يعمّرها بلا سببِ

حينها أشهق بالبكاء وأدرك أن «رشا» تفهمني جيدًا..

أتمنى لو أنه أمهلني قليلاً، لو أنه أنذرني برحيله فقط كيّ أخبره أنني لم أُرِد

obeikan.com

شيئًا في حياتي بقدر ما أردته وما كان فقدان شيء ليقتلني كما قتلني غيابه

لو كان التعبير عن الحب - أيًّا كان لونه- أمرًا أَلِفناه واعتدناه، لو تربينا على عبارات رقيقة نتبادلها في الصباحات والأمسيات والمناسبات السعيدة لأخبرتُ «ياسر» في يوم من أيامنا معًا عما أُكِنّه له.

لم يكن يرهقني التفكير في الطريقة التي يراني بها؛ كان يكفيني إدراكي بأن في عينيه لي نظرة حب كبير أيًّا كان نوع هذا الحب وأنني شغلتُ في حياته مساحةً لا تقارن بمساحة أي شخص آخر، كان يكفيني أن أكون سارّة «ياسر» الذي أخبرَني ذات يوم أن رؤيتي مبتسمة هي أكثر ما يُسره في الحياة..

كنتُ أخاف من فكرة حبّي له بالشكل الذي تحب به الأنثى الناضجة رجلها، أخاف أن تستوطنني الفكرة وتفسد شيئًا ما بيننا، فربما سيظل يراني طفلته الصغيرة التي لن تكبر أبدًا فيُحب امرأة أخرى ويتزوجها وتكون امرأةً لطيفةً لا تسمح للغيرة بالعبث بها كما يحدث مع الزوجات الحمقاوات فتصبح صديقتي وأختي الكبرى وتتفهم جيدًا علاقتي المختلفة به.

وأتـزوج أنا أيضًا من رجلٍ يشبه في رُقيّه زوجة «ياسر» فيصبح من أعزّ أصدقائه وتتحول علاقتنا الفريدة إلى صداقةٍ وطيدةٍ ممتدةٍ بين عائلتين وربما تزيد من رباطنا علاقة نسب يومًا ما!

هذا هو السيناريو الأول الأكثر أمانًا ...

أما السيناريو الثاني الذي كنتُ أهِيم به وأطرده بفظاظة فكان يقول أن هنالك الكثير مما يُخبئه لي «ياسر» في قلبه وأن الكلمات التي كثيرًا ما رأيتها في عينيه ستخرج من شفتيه يومًا لتأخذ قصة حبنا إلى العلن وسأصبح أنثاه أمام الجميع وربما أموت حينها فرحًا.

لكن ما حدث فيما بعد هو أنني مِتُّ قهرًا لفراقه، تمنيتُ لو أنه بقي وتزوج بامرأة شرقية تقليدية تكرهني وتمارس معي أقذر أنواع الهمْز واللمْز، لو أنه بقي فقط...! كانت رؤيته بين الحين والآخر ستهدهد حرماني، كنتُ سأتزود بصوته وهو يسلّم عليّ إلى وقت اللقاء القادم، كنتُ سأكتفي بأي قليل يجمع بيننا ولو كان نسمة هواء تطوف بنا.

سألته ذات رسالة:

obeikan.com

«كيف تريد للمرأة التي ستتزوجها أن تكون؟..»

وفي موعد رسالته اليومي بعث لي بكلمات كنت أنتظرها بلهفةٍ خلّدتها في ذاكرتي حتى الآن:

(فلتكن كما تريد ما دامتْ حبيبة روحي، أؤمن أن الحب الحقيقي هو حب الأرواح يا سارة وليس حب القلوب، ما القلب إلا جزء من جسدٍ أحمقٍ، ربما يتلقّى إشارة خاطئة في توقيتٍ صحيحٍ بالنسبة له فيبدأ بالخفقان بلا وعي دون أن يمهل نفسه للحظات يتأمل فيها حاله بعد ثورته الأخيرة تلك، لذا فكثيرًا ما يكون عدو نفسه، أما الروح فهي هبة اللّه لذلك الجسد، لا تضل الروح طريقها أبدا، تسلك دائمًا الطريق الذي يوصلها لتوأمها الذي يشبهها كثيرًا.)

أتذكر ابنة خالته «عبير» التي لم تكن تتوقف عن الحضور إلى بيتهم بدعوى زيارة خالتها، كنتُ أموت غيظًا وأنا ألاحظ إهتمامها المتدفق به، لا شك أنه لاحظ هو الآخر، ولاشك أنها تملك جمالاً مغريًا تعرف كيف تعزّزه بأناقتها اللافتة، تماما كأناقته هو!، كانت تصغره بسنتين أو ثلاث والحق أنها كانت

لطيفة معي، ذلك اللطف المستفز الذي يُشعر المرء أنه لا زال طفلاً !

سألته في رسالة أخرى إن كان يحبها، وحينما وصل ردّه وصل معه الشعور الرهيب إياه، الشعور بشيء يسعدني حتى الجنون ويخيفني حتى الموت، شعور متناقض لم أعهده في حياتي إلا في آخر ثلاث أعوام تمتعتُ فيها بقربه.

(لا أحب عبير، لكن أظنني أُحب فتاةً أخرى وأظنها تحبني أيضًا وأظن أننا سنتحدث في الأمر مطولاً ذات يوم، يكفي الآن أن تعرفي أنني أخاف عليها كما يخاف الأخ على أخته الصغرى وأثق بها كما يثق المرء بأفضل صديقٍ له وأعشقها كما يعشق الرجل امرأة أحلامه.)

كل تفصيلٍ عشته مع «ياسر» كان جميلاً، ما كان يهمني الوقت والمكان والكيفية في أن نلتقي، المهم فقط أن يكون هناك «ياسر» مادام هناك يوم جديد.

فحينما بدأ الجميع بمعاملتي كفتاةٍ كبيرة توقف هو عن ضمي إلى ذراعيه وتقبيل خدي كلما جاء إلى بيتنا وبدأتُ أنا في الاحتفاء بيني وبين نفسي

opeikan.com

بمجرد لمسة كفيه وابتسامته حينما يحييني، وحينما كبرتُ أكثر ولم يعد بوسعه اصطحابي في نزهات قصيرة داخل الحي بدأتُ أعشق الجدار القصير القابع خلف شجرة النيم في فناء بيتنا الرحب، ذلك الجدار كان الحد الفاصل بين منزلي ومنزله.. وعلى سطحه كان يترك لي رسالة في السادسة من مساء كل يوم وفي الثامنة أضع أنا رسالتي على عجلٍ متظاهرةً بالعبث بأغصان شجرة النيم..

إن عثر أحدهم على رسائلنا فسيجدني أحكي فيها عن يومياتي المدرسية وسيجده يحدثني عني رواية إحسان عبد القدوس أو يوسف السباعي التي أنهاها البارحة أو عن نزهة خرج فيها برفقة أصدقائه، سنضبط متلبسين بشيء جميل لا اسم له.

رسائلنا كانت ناعمة، معطّرة بأنفاس لهفتنا ومذيّلة بود لا يفسر، لم تكن يومًا رسائل غرامية وإن كانت بعض تفاصيلها تفضح شيئًا حميما لا أستطيع تعريفه ولا أظن «ياسر» كان يستطيع ذلك أيضًا.

لطالما شاكستني «رشا» وتحدثتْ عنه بوصفه حبيبي، كانت تعترض على

اعتراضي قائلة أن الأخوة أو الأصدقاء لا يتراسلون يوميًا ولا يمضون أسابيعًا بلا شجار، كنت أجيبها بأنه حتى العشاق يتشاجرون ويملّون من بعضهم أحيانًا...

قالت لي ذات يوم:

«إذن ماذا تكونان؟ توأمان سياميان أم كائنان فضائيان؟!!»

ضحكتُ ولم أعقّب فسؤالها كان يستعصى عليّ أنا الأخرى، كان ما بيننا أجمل من أن يُشرح، أعرف فقط أنني كنتُ أجد لذة لا مثيل لها كلما وضعتُ رسالتي ولهفة بحجم الكون كلما عثرتُ على رسالته، منذ أن وُضعتْ أولى الرسائل على سطح ذلك الجدار وحتى اليوم وأنا أهجر غرفتي كل ليلة وأنام تحته مستمتعة بكوني جارة «ياسر»، أُلصق جسدي بجدار يفصل بيننا ويربطنا في ذات الوقت، كنتُ استمد الدفء في الماضي من رجلٍ يقبع خلفه بينما استمده الآن من مجرد طيفه.

أسرح بمخيلتي أحيانًا وأفكر فيما سيحدث لو قمتُ بنشر رسائلنا هذه في غمرة جنون فلماذا لا أخلّدها كما خلّدت غادة السمان رسائل غسان كنفاني

إليها..!

تُضحكني مجرد الفكرة لأنني أُدرك إلى أي مدى هو قاسٍ وجلاد مجتمعنا، أدرك كم هو مولع بالظنون السيئة والإضافات المُغرضة والرفض المبدئي لكل ماهو مختلف.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع

أمضيتُ نهار الجمعة في تلك الواحة التي أقصدها كلما اشتقتُ لنسمة فرح لا تهب إلا برفقة براءة ..

«براءة» هي ربّة البهجة في عالمي، تفاصيلها الصغيرة أصبحتْ الشيء الوحيد المثير الذي أنتظره بشغف، سعيدة بها للغاية وهي تكبر أمام عينيّ، ينمو جسدها ويتفتح عقلها ويحتدّ ذكاؤها.

كل يوم جديد يعني لها فرصة جديدة لاكتشاف المزيد من جوانب الحياة، المزيد من الدهشة والشغف والتحديات، امرأة مثلي تحتاج لمثلها،

لشخص تستمد منه هذه الطاقة الايجابية، هذه الرغبة العارمة في حياة بهتتْ ألوانها في عينيّ.

أزورها محمّلة بالهدايا والحلوى والملل والهموم، تعرف» براءة «كيف تأخذ منّي كل ما أحضرته معي فتحتفظ بما تريده هي وتلقِ بما لا أحتاجه أنا بعيدًا عنّي، تعرف كيف تكافئني بأفراحٍ صغيرة تكبر بداخلي يومًا بعد يوم ، أتعجبُ من قدرة طفلة صغيرة على منحي كل هذه السعادة بضحكة مجلجلة أو كلمة جديدة أضافتها إلى قاموسها الصغير أو أغنية طفولية تحاول تعليمي إياها .

الخالة «سعدية» وزوجها العم «عبد الباقي» يطيران فرحًا بها كذلك؛ في كل زيارة جديدة تقص عليّ الخالة الكثير من طرائفها ومواقفها المرحة التي تنم عن ذكاءٍ حادٍّ، تحكي عنها بجذلٍ أم يملؤها حب صغيرها وفخرها به، حتى إهتمامها بها كان مميزًا خصوصًا وهي امرأة كبيرة في السن.

أحضر في أي وقت لأجد صغيرتي مهندمة تفوح منها رائحة المسك، مهذبة الشعر في تسريحة جميلة وقد طليتْ أظافرها الصغيرة بطلاء أظافر وردي

جميل لم أحضره أنا لها!

تستقبلني الخالة وتودعني بالدعوات، أشعر نحوها بامتنانٍ لا يُوصف، بأنني مدينةٌ لها بالكثير وأعرف أنها تشعر بالشيء نفسه حيالي...

قُبيل الغداء خرجتْ الخالة لشراء (الكسرة) التي سنتناولها مع البامية المفروكة وقطع الدجاج المقلي الذي أزكمتْ رائحته الشهية أنفي وأيقظتْ جوعي، كنتُ أتجنب الغداء معها لأنها تتكلف في إعداده حينما أكون موجودة، أظنها لاحظتْ ذلك فأصبحتْ تتصل خصيصًا لدعوتي عليه من حين لآخر ولم يكن هنالك بُد من تلبية دعوة امرأة حساسة أخشى جرحها أو إحراجها، خصوصًا بعدما قالت لي ذات محاولة للخروج قبل حلول موعد الغداء:

«أريد أن تشعري هنا أنكِ في بيتكِ يا ابنتي، تُكرمينني شهريا بمبلغ يفيض عن حاجتنا، فلتسمحي لي بإكرامك قدر استطاعتي»

بعد خروجها بقليلٍ وصلني صوت العم «عبد الباقي» وهو يناديها بلطف طالبًا كوبًا من الماء، طرقتُ باب الغرفة الصغيرة حيث يجلس ثم دلفت،

obeikan.com

تتبعني «براءة» وفي يدها دُميتها الأثيرة

كان مستلقيا على فراشه، ممسكا بجريدة وقد انسدل غطاء قديم من منتصف بطنه وحتى نهاية جسده المبتور.

رجل عجوز شديد النحول ..أصلع الرأس، أشيب اللحية بينما يتصارع الشيب مع السواد على شاربه الخفيف، مددتُ إليه كوب الماء قائلة:

« تفضل يا عم، الخالة سعدية خرجت لشراء الكسرة».

أومأ إليّ برأسه مبتسمًا وهمس قبل أن يتجرع الماء دفعة واحدة:

«بارك اللّه فيكِ يا ابنتي، كنتُ أظن خالتكِ هنا «

- لا بأس. أنا أيضا مثل ابنتك

- و أعزّ يا ابنتي، يكفي أنكِ أدخلتِ السرور إلى قلب سعدية بهذه الوردة الصغيرة، ويكفي أنكِ فعلتِ ما عجزتُ أنا عن فعله وتركتها ترتاح.

عجزتُ عن الرد فأردف هو بأسى:

«كنت أتمنى إسعادها، أنها امرأة أصيلة، لم تقصرْ معي يومًا ولكن ما باليد

obeikan.com

حيلة».

شعرتُ أنه بحاجة للكلام عن امرأة لم يعد يقابل أحدًا سواها في حياته إلا فيما ندر!..

« لماذا تقول هذا يا عمي، إنها سعيدة معك، تتحدث عنك دائمًا بكل خير»

أجاب وهو يهزّ رأسه بذات الأسى:

«ألم أقل لكِ أنها أصيلة! ، تحملتْ سنوات من الفقر رغم عدم وجود الأطفال الذين يربطون المرأة بزوجها كما يقولون !

منذ أن تفتحتْ عيناي على الحياة وأنا أعرف أن عليّ أن أكافح، تركتُ الدراسة مبكرًا لأُعين أبي على أعبائه، تعبتُ كثيرا حتى أصبحتُ نجارًا ماهرًا، قادني الطموح إلى العاصمة وإلى سعدية الجميلة وعرفتُ حينها أن عليّ أن أُكافح أكثر، تقوس ظهري وأنا أكافح لكنني كنتُ سعيدًا، لم يغزني التعب وأنا في أوّج عملي لكنه باغتني حينما فقدتُ القدرة على العمل، عرفتُ حينها أنه حتى الكفاح يعد امتيازا لا يناله سوى المحظوظين الذين أُخرجتُ من بين صفوفهم لأُدس بين صفوف العاجزين»

obeikan.com

أربكتني كلماته الطافحة ألمًا، شعرتُ أن الرجل يحتاج أذنيّ في هذه اللحظات وليس لساني فآثرتُ الصمت.

تابع مُنكسًا رأسه:

«لقد كنا سعداء رغم فقرنا ووحدتنا وذهاب شبابنا، كنتُ رجلاً طبيعيًّا، يكدح ويكسب ويُعيل نفسه وزوجه، لكن يبدو أن الذين يملكون ما لا نملك قد استكثروا علينا بساطة سعادتنا، استكثروا عليّ قدميّ، استكثروا أن أظل مرفوع الرأس حتى أموت..

قاطعتُه حينما شعرتُ أنه يغالب دمعه:

«و ستظل مرفوع الرأس يا عمّاه، أعرف أن الحادث كان بشعًا وأن خسارتك فادحة لكن الله كفيل بتعويض كل الخسائر».

– و نعم بالله!، لا يوجد من يستطيع تعويضي عن الشعور بهذا العجز سواه، كم كان يؤلمني أن أظل راقدًا طيلة النهار ما بين التلفاز والجرائد والأحاديث الفارغة مع أمثالي من عجائز الجيران بينما تنظف زوجتي الحمامات لآكل وأشرب وأحصل على الدواء، لم أكن أنتظر من ذلك الولد

الحقير تعويضًا لا يمكن تقديمه في الأساس، كان يكفيني فقط أن يحملني إلى المستشفى، أعذره على عدم فعل ذلك كشاب يخاف ضياع مستقبله بسبب عجوز هرم انتهى عمره الافتراضي!، كان يكفيني أن ينظر إلى ذلك الجسد الذي دعسته سيارته الفارهة، كان يكفيني أن يقول (سامحني) ثم يهرب كما يشاء»

حان دوري لمغالبة دموعي أنا الأخرى، قلتُ أول شيء خطر بذهني:

«قالت لي الخالة أن أحد المارّة قام بالتقاط رقم السيارة، لماذا لم يتم القبض على صاحبها؟»

ابتسم بسخرية:

«الأرقام لا تعني شيئًا أمام سلطة ونفوذ البعض، وعدوني أنه سيتم العثور على هوية الجاني - كما أسموه - في أقرب وقت ممكن، لكن ما حدث بعد ذلك جعلني أعرف هويته»

حدقتُ فيه بما يبدو أنه كان بلاهة وسألتُ:

«من ؟»

obeikan.com

- هو ليس شيئًا على الإطلاق يا ابنتي لكن لا ريب أنه مرتبط بشكل أو بآخر بشيء من تلك الأشياء المقيتة التي يسمونها (ذوي المناصب المرموقة)..

كان العم «عبد الباقي» على وشك أن يضيف شيئا حينما وصل إلى أسماعنا صوت الخالة «سعدية» وهي تتفقدنا.

×××××

دخلتُ المحل في المساء، ذلك المكان الذي يبدو للناظرين كمجرد صالة واسعة طُليتْ جدرانها بلون بنفسجيّ هادئ وامتلأتْ رفوفها بالكثير مما يسيل لعاب الفتيات!، فضلاً عن مكتبٍ خشبي أنيق وبعض دُمى العرض المتناثرة في الأركان، أي مجرد بقعة للبيع والشراء لكنه بالنسبة لي حلم تحقق، هدف اجتهدتُ لتحقيقه مذ أردته.

لم تكن مهمتي سهلة فقد كان عليّ اختيار موقعٍ مناسبٍ وتوفير بضاعة جيدة بأسعار مُغرية بالإضافة إلى تسويق متميز، لم أكن أربح ما يُذكر في البداية فأُجرة المحل ليست بالهيّنة بالإضافة إلى التكاليف الأخرى، كاد اليأس يغزوني خصوصًا أن بعض التلميحات والتصريحات أخذتْ توصيني

بإغلاقه، لكنني تسلحتُ بالصبر ورفضتُ المعونات التي أقترح والداي تقديمها فقد كنتُ أريد نيل النجاح بمفردي فيما اعتبرته مشروع حياتي ووضعتُ مدخرات سنوات عملي بالمصرف كرأس مال له.

شعرتُ أن الله معي، فقد كانت الراحة تغمرني كلما استخرته في أمري هذا ودعوته ليرشدني إلى الصواب، وها أنا اليوم أقف فخورة في صالة أحلامي التي استطعتُ امتلاكها بدلاً من تسديد أجرتها شهريًا .

بعد قرابة الساعة هاتفتني «رشا» لتخبرني أنها في طريقها إليّ، افتقدتُ الرنّة المرحة في صوتها لكنني آثرتُ أن أسألها عن حالها حينما نلتقي.

لم تتأخر، كانت ملامحها تشبه صوتها كثيرًا، وجهها شاحب..خالٍ من مساحيق التجميل التي لا تفارقه عادة، ابتسامتها الطفولية الجميلة غائبة وفي عينيها سحابة حزن توشك أن تمطر.

قبّلتني على عجل وبادرتْ بالحديث قبل أن أسألها عن أي شيء:

«كنتُ البارحة في حفل زفاف أخت صديقتي كما تعلمين»

قالتها في ارتباكٍ، ثم ابتلعتْ ريقها وأكملت بصوت باكٍ:

obeikan.com

«ليتني لم أذهب «

- رشا..أنتِ تخيفينني! هل وقع مكروهٌ ما أثناء الحفل؟

سقطتْ دموعها وهي تقول بهدوء:

«لا. لكن خمّني من هو العريس!»

قادتني أفكاري بسرعة إلى الشخص الوحيد الذي كان يهمها أمره، شهقتُ.. فأومأتْ بالايجاب وهمستْ:

«نعم ..محمود».

وجدتُني أتمتم ببلاهة:

"العالم صغير حقًا»

أطبقتْ أهدابها ليسقط ما علق بينها من دمع ثم قالت في مرارة

«البارحة كرهتُ نفسي كثيرًا، أنا متزوجة من رجلٍ رائعٍ لم يقصّر معي قط، وقصة محمود انتهتْ منذ سنوات طويلة، لماذا شعرتُ إذن بنارٍ تستعر في صدري حينما رأيته إلى جوار عروسه!...»

obeikan.com

قاطعتها:

«هوني عليكِ، لقد تفاجأتِ فقط، أي امرأة في مكانك كان سيُربكها الموقف»

– لم يكن ارتباكًا فقط، لقد تولّدتْ بداخلي طاقة هائلة من الكراهية تجاه العروس، طاقة كانت تكفي لأن أتقدم نحوها وأوسعها ضربًا، لقد شطح خيالي بعيدًا يا سارة.. تخيّلتُ أنني تخلصتُ منها ومن جميع المدعوّين بشكل ما ثم أخذتُ بيد محمود لنهرب بعيدًا، لنحقق كل ما حلمنا به من قبل.

تابعتْ بانفعال كبير وهي لا تزال تمسح دمعها:

«تصوري أنني فكرتُ بكل هذا في دقائق معدودة، نسيتُ أنني زوجة لرجل ليس له مثيل، نسيتُ أنني أم، نسيتُ أنني امرأة محترمة!....»

قاطعتها مجددا وأنا آخذها بين يديّ:

«كنتُ أعرف أنكِ حساسة للغاية يا «رشا» لكنني موقنة الآن بأنكِ .... ، في الحقيقة لا أجد وصفًا ملائمًا لما أنتِ فيه! ؛ سيقتلكِ الشعور بذنبٍ لم تقْترفيه، من الضروري أن يحاسِب المرء نفسه ولكن عليه أن يتذكّر دومًا

openkitab.com

أنه ليس ملاكًا، هل لاحظ أحدهم شيئا؟»

هزّت رأسها بقوة كطفل ينفي عن نفسه تهمة خطيرة:

«حضرتُ إلى الحفل متأخرة ولم أبقَ كثيرا بعدما رأيتهما..حتى أنني لم أبارك لصديقتي؛ شعرتُ أن كل من سينظر في وجهي سيعرف أنني لستُ على مايرام، عجّلتُ بالخروج وعدتُ إلى المنزل في سيارة أجرة، لم أتصل بذلك المسكين ليوصلني كما كان اتفاقنا».

لم أستطعْ منع نفسي من الابتسام وأنا أتذكر الطريقة التي نطقتْ بها كلمة (المسكين)، كانت تعني زوجها لكنها لفظتها بطريقة مجرم تائب يتحدث عن إحدى ضحاياه!

أغاظتها ابتسامتي فسددتْ لكمة واهنة إلى كتفي وهي تصرخ بغضب طفولي:

«تسخرين مني! «

حينها لم أتمالك نفسي وضحكتُ حتى أوشك الكرسي على الانقلاب بي!

الفصل الثامن

«رشا»..

تلك المرأة الصغيرة، الطفلة الأنثى..

مظهرها الخارجي يشبه دواخلها كثيرا، الخدان الممتلئان والعينان اللتان تدوران بشقاوة طفلة فضولية، تعابير الوجه المليئة ببراءة غير متكلفة والصوت الذي لا يجيد إخفاء انفعالات صاحبته أيا كانت، ولأنها عفوية جدًا فقد كانت كل تفاصيل حياتها تشبهها كثيرًا، الألوان الزاهية المشرقة لكل ما تنتقيه لنفسها وأطفالها وحتى لبيتها، ضفيرة شعرها الطويلة التي

obeikan.com

تجددها كل يوم ثم تزيينها باكسسوارت ملونة صغيرة.. وهواياتها الأنثوية التقليدية من تفنن في الطبخ والخياطة والتسوق!

التقينا مصادفةً في العطلة الدراسية التي سبقتْ انتقالنا إلى المرحلة الثانوية، كان ذلك في المسبح الذي كلّف ارتياده جهودًا مضنية لإقناع «عثمان»!

نشأتْ بيننا صداقة منذ اليوم الأول رغم أنني لستُ من النوع الذي يُجيد الحصول على صداقات بسرعة، لكنني محظوظة لأن صدفة قدرية جميلة جعلتْ «رشا» تختصني بابتسامتها الطيبة.

فوجئتُ بعد ذلك بلقائنا في نفس المدرسة الثانوية، كانت في الفصل المجاور لكن ذلك لم يمنع لقاءنا بين الدروس وفي استراحات الإفطار وفي بيتنا وبيتها أيضًا بحجّة المذاكرة .... عاما بعد عام وأصبحت «رشا» صديقة عمري.

مررنا بمواقف كثيرة أثبتتْ مدى متانة علاقتنا، لكن لا شيء بالنسبة لي يضاهي وقفتها معي حينما فجعتُ بـ «ياسر» قبيل امتحانات المرحلة

الثانوية، اندهش كل من يعرفني من تدنّي درجاتي وأنا التي كنت دائمة التفوق.. واندهشتُ أنا من كوني قد تجاوزتُ تلك الامتحانات بنجاحٍ رغم ما كنت أقاسيه..!

كانت صورة «ياسر» تتراءى لي على غلاف كل كتاب، أتجاهلها وأقلّب الصفحات فتهاجمني رائحة عطره، أحاول التركيز في الأحرف المتراصّة أمامي فلا أجد في ذهني شيئًا سوى الكلمات التي كان يُشجعني بها على الاجتهاد في المذاكرة.

ليته يعلم أن كل الأشياء من بعده باتت لا تشجع إلا على البكاء، البكاء على أيام جميلة مضتْ بلا عودة والبكاء على أيام أجمل لن تأتي أبدا.

جعل رحيله منّي دمية هشّة وضعيفة جدًا، كنتُ أشعر أنني بحاجة لشخصٍ يسير خلفي دائمًا حتى لا أسقط في الزحام فتدوسني الأقدام اللاهثة نحو اللا شيء الذي يتهافتُ عليه البشر.

ذلك الشخص كان «رشا».. لذا فقد حرصتُ على أن ننتسب لنفس الجامعة، رغم بساطتها كانت «رشا» قوية بشكل ما، لم تكن شخصًا قادرًا على

النهوض بعد كل سقطة فحسب، بل كانت تملك قدرة فريدة على الأخذ بأيدي الآخرين كي ينهضوا أيضًا..

تحمّلتني كثيرًا خصوصًا في سنتنا الدراسية الأولى، مزاجي المتقلب العكر عادة، صمتي الدائم وافتقادي لحس الدعابة الذي يملؤها هي، وحتى نوبات البكاء التي كانت تفاجئني أحيانًا دونما سبب ظاهريّ،

احتضنتني بحق، شعرتِ بألمي الذي كنتُ أتكبّد مرارة إخفائه عن كل الناس سواها لأن إمتداده كان بالنسبة لهم غير مبرر إطلاقًا فحتى الحزن كان له تصنيفات وتواريخ صلاحية.. وكنتُ بالنسبة لهم قد استنفدت فرصي منه، كم هو قاسٍ أن يخشى المرء محاكمةً على أحزانه!

في نهاية السنة الدراسية الأولى تعرفتِ «رشا» إلى زميلنا «محمود»، كان طالبًا في السنة الثالثة في نفس تخصصنا، سرعان ما شعرتُ أن ثمة قصة حب تلوح في الأفق وسرعان ما أصبح شعوري واقعًا يعترف به كلاهما.

صارت «رشا» أجمل حينما امتزج الحب بأنوثتها وطفولتها في ذات الوقت، ابتهجتِ بالحب كما يبتهج طفل بطائرة ورقية تحلّق في الفضاء فيتبعها هو

obeikan.com

بروحه، يقولون أن السعادة معدية، وأظن أن هذا صحيح فبهجتها كانت تنتقل إليّ كل صباح لتمنحني قدرًا كافيًا من الرضا لإكمال يومي.

كان «محمود» متفوقا، تخرّج بامتياز كما توقّع الجميع له وحصل على وظيفة مساعد تدريس بالكلية كما توقّع الجميع أيضًا، نفّذ وعده وتقدم لخطبتها وكما في الأفلام الكلاسيكية رفضه والدها الأرستقراطي بدعوى أن دخله لا يساوي شيئا أمام مصروفها الشهري...

و كما في الأفلام الكلاسيكية أيضًا قال لها الكلمات المعتادة عن أنها لا زالت صغيرة وأنها ستشكره ذات يومٍ لأنه أنقذها من ذلك الصعلوك الطامع بمشاركتها حياتها الرغيدة، كانت تتألم بشكل مزدوج، فقد وئدت قصة الحب التي حلمتْ لها بعقود من الازدهار وجُرح الرجل الذي تحبه لأنه أحبّها فقط! لأنه أحبّها فقد ظهر من يقول له أن أخلاقه وثقافته واجتهاده لا يساوون شيئًا أمام المال الذي يراه هو أرخص مافي الدنيا.

و هكذا بدأ «محمود» في تجنّب «رشا» وتحاشيها قدر المستطاع، حاولتْ التحدث إليه مرارًا بحثًا عن حلول، رغم أنه لا يوجد حل يلائم كبرياءه

openkan.com

وضعفها أمـام عائلتها، لكنها أرادت أن تثبت له كم هي متشبثة به وكم توجعها فكرة فراقهما، وكان يصدها بقسوة لم ألمحْها فيه من قبل..

أظن أن المحب لا يحارب بقسوة إلا إن كانت القسوة قد أدمتْ قلبه، ولا يُشهر نصْله إلا اذا كان ينزف....... وهكذا انتهى كل شيء.

زُفّت «رشا» بعد أشهرٍ إلى ابن عمها الذي صارتْ تحكي بمناسبة وبغير مناسبة عن أنها تحبه وعن كونه أفضل رجل في العالم!، أظنها عرفت كيف تطوّع قلبها ليتقبّل ما يراه عقلها صحيحًا ولا أعرف إن كان هذا يمنحها سعادة حقيقية أم لا!

لستُ أعرف أيضا إن كان والدها مُحقّا في طريقة تفكيره أم لا فـ «رشا» فتاة مدلّلة، عاشت في ترفٍ يصعب على أي فتاةٍ في مكانها التخلي عنه والانتقال إلـى حياة عادية تنظف فيها الفتاة بيتها وتغسل ثيابها وثياب أسرتها وتحضّر إفطار وغداء وعشاء كل يوم!

وهكذا رأى والدها بلا شك، أتفهمه تمامًا كأبٍ يخاف على مستقبل ابنته ولا يؤمن مطلقًا بنظرية «الحب يصنع المعجزات»، والله وحده يعلم صحة هذه

obeikan.com

النظرية من بطلانها، فكلما أوشكتُ على الإيمان بها أجدها قد تهاوتْ أمام واقع ألمسه أو أسمع عنه وكلما أوشكتُ على الكفر بها قفزتْ إلى ذاكرتي الحكايا الرومانسية التي جعلتني أؤمن بها في البدء!

أظن أن المشكلة تكمن في أننا كبشرٍ نعتاد النعم بشكل يجعلنا لا نعود نتذكر أنها هدايا ثمينة من الإله، لا أحد يستيقظ صباحًا ويتذكّر حينما يفتح عينيه أن ضوءهما نعمة، حينما يفتح فمه ليقول لأحبائه (صباح الخير) فإنه لا يتذكر أيضًا أن صوته نعمة، وحينما يأتيه الرد على تحيّته الصباحية لا يتذكّر أن سمعه نعمة، وهكذا يمضي اليوم في تواترٍ لنعم لا نشعر بقيمتها لفرط اعتيادنا إيَّاها، وحدهم الفاقدون لنعمة ما أو المهددون بفقدانها يتذكّرون كل يومٍ كم هي قيّمة.

كذلك هي أحلامنا، نتطلع إليها كنجومٍ في سماء بعيدة وما أن تتحقق حتى نبدأ في التعامل معها كأمور عادية كأسماعنا وأبصارنا وقدرتنا على النطق!

ربما خشي والد «رشا» أن «محمود»(النعمة) أو «محمود "(الحلم) سيغدو شيئًا عاديًا في حياة ابنته حالما تعتاد وجوده، حينها سيُصبح التذمر من

فقره- أو توسُّط مستواه على الأصح - هو سيد الموقف، أي أن «رشا» ستغدو واحدة من فاقدي النعم التي اعتادوها طيلة حياتهم، وبالتالي سيغدو شعورها بالحرمان جليّا في حياتها أكثر من شعورها بالحب.

و على كل حال فأنا واثقة من شيء واحد حيال هذا الأمر، وهو أن القرار كان يجب أن يكون قرارها وحدها، كان من حقها أن تخوض تجربتها وتحتمل نتائج التجربة، فربما يجد المرء نصف سعادته في قرار خاطئ إتخذه بنفسه ويجد كل تعاسته في قرار صائب أُرغِم عليه، ثم أنه لا يوجد ماهو صائب أو خاطئ بشكل مطلق، فلماذا يصر الوالدان أحيانا على التعامل مع أبنائهما كممتلكات؟!.. كحجارة شطرنج صمّاء يحق لصاحبها تحريكها كما يشاء، أو كشخصيات مسلوبة الإرادة تسعد وتشقى بحسب مزاج الروائي الذي خلقها! وحينما يتمرد الابن فإنه يعامل كمرتد، يُستتاب مرة واثنتين وثلاث لتنتزع منه الموافقة على تنفيذ الأوامر تحت ضغط التهديد بقطيعة نهائية، بغضب طاحن يصرّون على أن الغضب الإلهي سيعقبه بلا شك، كيف لأب وأم أن يرتضيا دور الطاغوت بهذا الشكل!

×××××

obeikan.com

ما أن أطفأتُ أضواء غرفتي ووضعتُ رأسي على الوسادة حتى هاتفتني «رشا»، بَدَا صوتها أكثر ارتياحًا وهي تطلب مني مراجعة بريدي الإلكتروني لقراءة الرسالة التي بعثتِ بها منذ قليل:

غاليتي سارة..

أعرف أنكِ خبأتِ الكثير من قلقكِ عليّ وحيرتك في أمري خلف ضحكاتك وكلماتكِ التي حاولتِ بها تبسيط الأمر، أكتب لكِ الآن لأُخبركِ عن أشياء كثيرة لم أخبركِ بها من قبل رغم أنكِ كنتِ لصيقةً بي دائما، أوجاع آثرتُ الاحتفاظ بها لنفسي رغم أن الحديث عنها ربما كان سيخفف منها.

لم أُخبركِ يا صديقتي أن عدة تفاصيل هربتْ من الماضي الذي كنتُ أظنها قد حُبست فيه إلى الأبد، تفاصيل أطلّت عدة مرات في حياتي.. عبثتْ بذاكرتي، أيقظتْ حبه المدفون بداخلي.. ذلك الذي كنتُ أظنه جثة هامدة فإذا به ينتظر أن يربّتَ عليه أي تفصيل من الماضي كي ينهض بنشاط مخجل، مربك، كم هو غريب أن يصبح أنقى شيء في حياتكِ محرما حرمة تؤمنين تمامًا بمنطقيتها، كل الصراعات التي يخوضها المرء مع ما حوله

أسهل بكثير من صراع مع ذاته بسبب شيء يعتبره القلب سرًا جميلاً له أحقية الخلود الأبديّ ويعتبره العقل وَرَمًا شيطانيًا لا بد من اجتثاثه رغم تشعّبه في كل الخلايا، رغب قلبي على مرّ أعوام في السؤال عن أحوال « محمود»، في السؤال عما إذا كان شيء منّي لازال عالقا بذاكرته ومتصلا بقلبه، عن حياته مع الأنثى المجهولة التي لابد أنها إحتلت أو ستحتل مكاني أو جزءاً منه في روحه، وحمدتُ اللّه كثيرًا أن عقلي كان حاسمًا منذ البداية فقطع كل خطوط الإتصال بيننا، عرف كيف يجعل منّا غريبين، مجرد رجل وامرأة من بين بلايين الذين لا يربطهم ولن يربطهم أي شيء، ظننتُ العالم أوسع بكثير من أن تجمعنا مجددًا أي صدفة.، إتضح كما تعلمين أنني كنت مخطئة! ، ولكن هذا لن يقلل من حتمية نجاح عقلي في إخماد أي شعلة قد تُضرمها ذاكرتي الحمقاء مستقبلاً...

لا تقلقي يا عزيزتي..سأكون بخير وسأنال نصيبي من السعادة مع الأسرة الصغيرة الرائعة التي أكرمني اللّه بها، وسأعرف كيف أُميت بداخلي الماضي بحلوه ومرّه.

الفصل التاسع

كنتُ منشغلة بوضع الأسعار لحقائب نسائية وصلتني حديثا حينما تناهى إلى سمعي صوت رقيق يحييني

«السلام عليكم»

أجبتُ بطريقة آلية وأنا أمنحها ابتسامة سريعة ثم أعود إلى الآلة الحاسبة :

«وعليكم السلام ورحمة الله..أهلا بك، تفضلي»

- «يبدو أنكِ أصبحتِ سيدة أعمال من الطراز الرفيع ولا وقت لديكِ لرفيقاتكِ القدامى!»

رفعتُ رأسي ودققتُ في محدثتي ...

ثلاثينية جميلة لم يفلح مظهرها العادي في الانتقاص من جاذبيتها، تشع من عينيها أشياء كثيرة ميّزتُ من بينها الذكاء وخفة الظل فتذكرتها على الفور!

لم تكن سوى «ليلى»، طالبة المختبرات الطبية التي كنا نناديها بالطبيبة دونًا عن بقية زميلاتها، كانت نموذجًا للفتاة المجتهدة التي لا يشغلها شيء سوى المحاضرات وجمع المراجع والإمتحانات القديمة ورغم ذلك فقد حصلتْ على (عريس) قبل كل المتلهفات على الزواج كما كانت إحدى زميلاتها تقول ممازحةً.

يؤسفني أنني لم أتمكن من حضور زفافها، في الحقيقة فأنا أراها اليوم للمرة الأولى بعد لقائنا الأخير في كافتيريا الجامعة رغم أنها كانت من المقربات منّي ومن «رشا».

بعد أن فرغنا أخيرًا من العناق المصحوب بتكرار السؤال عن الأحوال وتكرار ذات الأجوبة التقليدية دعوتها لتناول الغداء في المطعم المقابل

للمحل وقد احتاج إقناعها بذلك جهدًا أكثر من الذي كنت أتوقعه!

ما أن جلسنا على طاولة قصيّة بجوار النافذة المظللة بلون أزرق داكن حتى عاودنا الحديث مجددًا:

«أخبريني..كيف وصلتِ إلى المحل ؟»

رمقتني بنظرة ماكرة وهي تزوي شفتيها:

«كي تعرفي فقط أن من يريد الوصول يمكنه الوصول!، لقد سألتُ عنكِ زميلتنا منى التي كانت تسكن بالقرب من منزلكِ، بقينا على إتصال لأن أخي تزوج من ابنة عمها وقد اكتشفنا ذلك بمحض الصدفة».

علّقتُ بحماس:

« منى! فعلا، لقد زارتني في المحل ذات يوم لكننا لم نلتقِ بعد ذلك، إذن فقد أصبحتم أهلاً»

قلتُ ذلك بابتسامة واسعة لكن ابتسامة ليلى اختفت وهي تقول:

«كنا أهلاً بحق لكننا لم نعد كذلك، لقد طلّق أخي ابنة عمها مؤخرًا،

obeikan.com

وتعرفين منى!، لا تملك القدرة على فصل الأمور، أخذتنا جميعا بجريرة أخي وصارت تتجنبني تمامًا».

دفعني الفضول لسؤالها عن السبب فتنهدتْ بأسى وأجابت:

« لقد ظلمها أخي، كل ما في الأمر أنها لم تنجب، تحتاج لعلاجات معقدة ليصبح هذا ممكنًا.. فقرر هو الزواج بأخرى، وقرر أيضًا أنه لا جدوى من الاحتفاظ بها على حد تعبيره، تكفيه واحدة!، لقد كان نذلاً جدًا»

كدتُ أقول رأيي في الأمر بصراحة لكنني تذكرتُ أمي وغضبها الصريح أحيانًا والمكتوم أحيانًا أخرى حينما تشتكي لأحدهم من «عثمان» فيجاريها في الإساءة إليه!

«كان الله في عونها، أخبريني عن حالك أنتِ، كيف تسير حياتكِ مع زوجك؟ هل أنجبتِ أطفالا؟»

قلتُ الجملة الأخيرة بحماسٍ قَطَعه وصول النادل ليأخذ طلباتنا.

حالما انصرف نظرتْ إليّ «ليلى» بما يشبه ابتسامة وقالت:

«لقد تطلقتُ أنا الأخرى»

لم أستطع كتّم شهقة دهشتي، لاحظتُ الآن فقط خلوّ يديها من خاتم الزواج ومن أي أثر للحناء التي تتزين بها المتزوجات عادة.

بدأتْ تحكي بطريقة أمٍ أو معلمة اعتادتْ تكرار نفس القصة :

« كان طيبا وكريما.. لطالما دلّلني وعاملني كأميرة...

لكنه كان يبدو كشخص آخر تماما في بعض الليالي التي يعود فيها وقد تشبّع بمزيجٍ من المخدرات والخمر لتبدأ بعد ذلك جولات من الضرب المبرح في حال تذمرتُ من منظره وجولات مما يشبه الاغتصاب في حال لذتُ بالصمت، صدقيني.. لقد حاولتُ تغييره، كان يغضب جدًا حينما أقترح عليه التوجّه إلى مصحة لعلاج الإدمان بدعوى أنه ليس بمُدمن وأنه قادر على إصلاح نفسه بنفسه، حاولت إعانته على التغيير، لكنه لم يكن راغبًا في ذلك حقًا، وربما لم يملك قوة أو عزيمة لمجاهدة نفسه، لا أدري!، أعرف فقط أنني احتملتُ فوق طاقتي، عشتُ عشر أشهر في عذابٍ لا نهائي»

وجدتُني أصيح بغضب وقد بلّل الدمع عينيّ:

«كيف احتملتِ أنثى برقتكِ وحشية كهذه لعشر أشهر، لماذا لم تفارقيه منذ

البدء؟! «

قاطعنا وصول النادل بأطباق المقبلات، طلبتُ منها أن تتناول غداءها بهدوء ثم نكمل حديثنا فيما بعد..

لكنها استطردتْ وهي تعبث بملعقتها في الحساء:

«الحديث في الأمر لم يعد يثير مشاعري، نتألم بقدر ما أحببنا وليس بقدر الألم ذاته.. وقلبي لم يتعلق بذلك الرجل، لذا فقد كنتُ أشعر كأسيرةٍ تتوق للفكاك وليس كعاشقة تنزف بسهام من تحب، كنتُ ولازلتُ مجروحة فقط بسبب العائلة التي رخّصت من قيمتي ولازالت تفعل، لا زالوا يضغطون على جرحي كل يوم، لقد اعتدتُ الأمر لدرجة أنه أصبح روتينيًّا أكثر من كونه مؤلمًا،

عدتُ إليهم باكيةً بعد رحلة شهر العسل التي دامت لأسبوعين، أعادوني إليه ذليلة، وصار يتفنّن في تعذيبي أكثر حينما عرف أنه لا سند لي، أقنعتُ نفسي أن عليّ التكيف مع رجلٍ يريدني على علاته بدلا من اللجوء إلى عائلة لا تريدني على علاتها أيضًا!، كان يسترضيني بزيادة جرعات لطفه وكرمه

obeikan.com

حينما يكون عقله في رأسه وكنتُ أنتهز تلك الفرص لإقناعه بأن حياتنا ستكون جميلة إن بقيتِ على هذه الوتيرة، كان يوهمني أنه سيحاول من أجلنا، لكنه لا يلبث أن يعود إلى توحّشه بعد فترة قصيرة، صرتُ أشمئز منه، كرهتُ وجهه ورائحته وصوته، بتّ أشعر برغبة في التقيؤ بمجرد أن يلمس يدي، لم يعد بوسعي أن أرى وجهه الطيب دون أن أتذكر وجهه الآخر!

عدتُ إلى عائلتي مجددا بعد أربع أشهر وطردتُ للمرة الثانية !.. فقد اكتفى والداي بعقد جلسة تأنيبية معه ووعدهم خيرًا كما كان يعدني دائمًا، ولم يفته أن يعّبر عن مدى تمسكه بي وحرصه على استمرار حياتنا بهدوء.

الفترة التالية من حياتنا كانت عبارة عن قطيعةً فرضتها عليه وقد ساعدني في ذلك حصولي على الوظيفة التي لا زلتُ أعمل بها حتى الآن، كنتُ أحاول البقاء في المستوصف لأطول وقت ممكن، وكان هنالك الكثير مما يمكن أن يشغل ما تبقّى من ساعات يومي، الهاتف والتلفاز وأعمال المنزل القليلة في ظل وجود الخادمة، تركتُ غرفة نومنا وانتقلتُ إلى غرفة أخرى كنتُ أغلق بابها عليّ ما دام موجودًا في المنزل لكن ذلك لم يمنعه من لعب دور السيد

مع الجارية المتمردة من حين لآخر غصْبًا واقتدارًا...

و لم يكن الأمر كافيا بالنسبة له، كان يريدني أنثى تمتلئ حبًا وشوقًا وكنتُ أندهش من أن مشاعري تهمه رغم حيوانيته!، قرر الضغط عليّ بأسلوب جديد، صار يتعمد بعثرة الأدلة على بداية خيانته لي في كل مكان، لم آبه بذلك! فبدأ هو الآخر في قضاء معظم الوقت خارج المنزل، كان يعود للاستحمام وتبديل ملابسه فقط، يجدني جالسة أحيانا أمام طاولة الطعام فينضم إليّ .. لكن الصمت كان يلفّنا رغم محاولاته المتكررة لفضّه والتي كانت تنتهي عادة بمشاجرة يقلب في نهايتها الأطباق أمام وجهي ويرحل»

كنتُ متعجبة من الهدوء الذي تروي به قصتها المأساوية، تتناول طعامها بينما تحكي عن أشياء أفقدتني أنا شهيتي

«ذات يوم عدتُ إلى البيت مرهقة فخلدتُ للنوم باكرًا، استيقظتُ فزعة على صوت طرق عنيف على بابي يصاحبه صوت واهن يرجوني أن أفتح الباب، شعرتُ أنه يبكي أو يكاد، فتحتُ الباب فطوّقني بذراعيه وبدأ يقول أشياء كثيرة مثل أنه يحبني ولا يقوى على العيش بدوني وأنه سيتغير من

أجلي فقط.

لكن كيف كنت سأصدقه وقد أتاني مترنّحا، بذات العينين الحمراوين وذات الرائحة الكريهة، صددته بعنف فظهر وجهه الآخر بقوة جعلتني أندم على فتح الباب؛ كانت جولة مختلفة بحق، بدا كمصارع يلعب لعبته الأخيرة، لا يضيره أن يحطم كل ما يصادفه ليثبت لنفسه قبل الآخرين أنه القوي الأوحد، لم يتركني لأن آثار عنفه ملأت جسدي ولا لأن بكائي وصراخي وصلا إلى أسماع الجيران الذين بدأوا في طرق باب شقتنا، ولكن لأن الدم الذي ملأ كل ما حولي كان مفزعًا بحق..

أخذني جارنا وزوجته برفقة الخادمة إلى طوارئ أقرب مستشفى بينما هرب هو إلى غرفة نومه، عرفتُ بعد ساعات من الإسعاف أنني فقدتُ جنينا،

كنتُ منتظمة في تعاطي الأقراص المانعة للحمل وهكذا شعرتُ أن حدوثه وضياعه شكّلا رسالة بعث بها القدر إليّ، رسالة تقول أن عليّ الرحيل بأي طريقة قبل أن أحمل في أحشائي ضحية تشاركني ما أقاسيه.

×××××

عند هذا الحد توقفتُ كلياعن تناول الطعام، عجزتُ عن قول أي شيء وبدأتْ دموعي تسيل بصمت بينما تابعتْ هي بذات الهدوء

« تعاطفتْ عائلتي معي أخيرًا، حصلتُ على ورقة طلاقي قبل أن أخرج من المستشفى ..لكن ما أن تعافيت حتى نُسي كل ما عانيته ،بدأ أبي في تضييق الخناق عليّ، تعرفين.. لو علم الآن أنني أتسكع في إحدى المطاعم مع صديقة لأقام الدنيا ولم يقعدها، أعيش وفق قيود وتعليمات لا تفرض حتى على أختي التي تصغرني بكثير... حيث يحق لها أن تعود من الجامعة في الثامنة أو التاسعة أو حتى العاشرة مساء أو أن تتغيب عن المنزل في أيام العطلات الرسمية لساعات دون أن تقول شيئا سوى أن لديها مشوار !..أما أنا فمهددة بالحرمان من وظيفتي في حال ثبت تسعكي على حد تعبير والدي».

صحتُ بغضب "ولِمَ كل هذا ؟»

ابتسمتْ ساخرة:

«يقول أبي أن سمعة المطلقة على المحك .. وأن العار حينما يحل فلن أوصم

به وحدي بل سيطول العائلة بأكملها، صار مشكوكًا بأخلاقي يا سارة.. وكأن زواجي انتهى عقب خيانة أو تفلّت أخلاقي، وكأنهم لا يعرفونني.. كأنني ما تربيتُ بينهم!»

- «أين والدتك من كل هذا؟ «

عادت الابتسامة الساخرة إلى شفتيها :

- أمي تشفق عليّ، تتشاجر مع أبي بسببي أحيانا... لكنني في نظرها أستحق ما أنا فيه فقد هدمتُ بيتي بيدي، فرطتُ في الرجل الذي أكرمني وتشبث بي حتى آخر لحظة، كنت متهورة ومستهترة، افتقدتُ تصرفاتي النضج والحكمة حتى وصل بي غروري إلى حائط مسدود....

هذا ما كانت تقوله للفضوليات اللواتي يسألن عن سبب طلاقي رغم أنهن قد عرفنه ممن سبقنهن إلينا من ناقلات الأخبار، أتعجبُ من كوني المخطئة في أعينهم لأنني لم أحتمل أخطاء شخص آخر! كيف يُعذر رجل يكبرني بعدة سنوات بطيش الشباب وأحاكم أنا بتهمة العجز عن احتوائه بصبر أم ؟ من أين لي بطاقة تضاهي فظاعته؟»

- لا عليكِ يا عزيزتي، لا يزال هنالك الكثيرون ممن يحيطون الذكور بقدسية تعادل الدونية التي يحيطون بها الإناث، لا يزال الطلاق بالنسبة لهم شبحا يفضلون انتحار المرأة باستمرارها في حياة بشعة عوضًا عن مواجهته

لا تأبهي لما يقال ما دمتِ تعرفين أن كل شيء جميل بداخلك لا زال طاهرًا رغم الدنس الذي أحاط به، لازلتِ قوية وطيبة.. لازلتِ ذكية وطموحة، لم يكن هنالك بيت لتهدمينه.. كانت مزبلة حاولت إزالة قاذوراتها فرفض صاحبها.. لقد حاولتِ يا ليلى والفشل ليس بخطيئة خصوصًا حينما يتعلق بأقدار الله أو بأفعال عباده».

ودّعتني « ليلى» بابتسامة تشابه التي جاءت بها ورحلتْ على وعد بلقاء قريب يشمل «رشا».

رحلتْ وتركتني لحزن لم يفارقني بسهولة..

الفصل العاشر

عدتُ إلى البيت بعد ظهر يوم صيفي حارق لأجد أخواتي الثلاث هناك، كدتُ أشك في أنه يوم جمعة لولا أنني عدت من المحل للتو، فليس من عادتهن زيارتنا مجتمعات في غير أيام العطلات لكن سرعان ما ظهر السبب جليّا كانت هذه الزيارة برعاية أمي.. فأخواتي هنا لإقناعي بالعريس الذي قررتْ تزويجي إياه!، المضحك في الأمر أن إحداهن كانت لا تفعل شيئا في حياتها بقدر ما تتحدث عن أن الزواج هو أكبر مطب قد تقع فيه المرأة!

لم يكن هنالك بدٌّ من مجاراتهن حتى تمر الزيارة بسلام، أمضينا ساعات من المناورات الكلامية حتى نجحْن في انتزاع موافقتي على مقابلة ذلك

obeikan.com

الرجل، لم تكن أمامي خيارات أخرى في ظل الحصار الذي فُرض عليّ، اشترطتُ فقط ألا يتعدى الأمر مجرد زيارة عادية... ويفضل ألا تضم أكثر من أربعة أشخاص فتاة وأمها وشاب وأمه يضيعون بعض الوقت!

لا تريحني أبدا فكرة الاجتماعات العائلية الكبيرة في مثل هذه الأمور فهي تعني موافقة ضمنية بينما لا يسكنني شيء سوى الرفض!

لقد صارت هذه الاجتماعات التي تقام تحت بند التعارف العائلي عبارة عن مراسم للخطبة والكارثة أنها تتحول في بعض الأحيان إلى مراسم مفاجئة لعقد القران، كم هو مضحكٌ أن يتم ربط مستقبل فتاة برجل ما بكل هذا الاستهتار، حتى وإن كنتُ عاشقة فلا يمكنني تخيل أن يهاتفني أحدهم حتى وإن كان أبي أو حبيبي نفسه ليخبرني أن عقد قراني سيتم بعد قليل!

لستُ بضاعة يتم نقل ملكيتها من شخص لآخر بكل هذه البساطة!

تعمدتُ أن تكون طريقتي جادّة جدًا وأقرب للحزم وأنا أقول لأمي أن توضح لصديقتها أنه سيكون مجرد لقاء لي بابنها، مجرد لقاء وليس بداية أو مشروعًا لأي شيء، حاولتُ أن أكون مهذبة قدر الإمكان وأنا أخبرها كذلك

أنها لن تجني شيئًا سوى الإحراج إن قررتُ القيام بخطوة أبعد مما اتفقنا عليه!

مساء الخميس التالي كنتُ بكامل زينتي - امتثالاً لأمر والدتي- أمام شاب وسيمٍ لبقٍ ووالدته، طبيبٌ ميسور الحال في الأربعينات من العمر.. أرمل بلا أطفال، تمتزج رزانته بخفة ظلّه ليشكّلا شخصيةً محببةً لا تخلو من جاذبية، هو باختصار عريسٌ مثاليٌّ بكل المقاييس إلا مقاييسي التي لم أعد أعرف ما هي أصلاً!

شعورٌ حاسمٌ تسلل إليّ منذ الدقائق الأولى، شعورٌ يقول أنه رجلٌ جيدٌ ليكون لي صديقًا أو أخًا أو زميل عمل...أي كل شيء سوى زوج!

كان اللقاء قصيرًا وربما أكون أنا المتسببة في ذلك كما لمّحتْ أمي معاتبة، أعترف أنني سرحتُ كثيرًا أثناء جلستنا، مرة في بضاعتي الجديدة.. مرة في تفاصيل ثوب والدته الأنيق وأخرى في الفطائر الشهية التي طلبتها أمي خصيصًا لأجل الزيارة وحذرتني من تناول شيء منها أمام ضيوفنا الأجلاء!

obeikan.com

هل تعتقد يا تُرى أن تناول الطعام أمام العريس ووالدته قد يفسد صفقة الزواج؟!

أمضيتُ ما تبقى من الليل في البحث عن سببٍ مقنعٍ للرفض، من الصعب جدًا على المرء أن يحاول إثبات ما لا يؤمن به، فأنا لم أجد في الرجل ما يعيبه بينما كان عليّ أن أختلق له عيبًا يقنع أمي!

ليتني أستطيع أن أخبرها أن المشكلة ليست في هذا الرجل أو في غيره، المشكلة هي مشكلتي أنا، المشكلة هي أنني أبحث عن حبٍ لم يأتِ خلال عشرين عامًا ولا أظنه سيأتي مطلقًا، تأخذني هذه الأفكار إلى ذكريات بعيدة حول سيرتي العاطفية التي أدرك خلوّها من كل شيء سوى «ياسر».

فقدانه كان الحدث الحاسم ما بين قلبٍ متوجسٍ من خسارته وعقلٍ راضٍ بالقليل منه، رحل... فلم يبق للقلب شيء يخافه وهكذا انتصر.. انتصر على مخاوفه دونما غنائم... فالغنيمة الوحيدة المشتهاة ضاعت بلا أي أمل في نيلها مجددا،

أفقتُ من واقع رحيله الصادم لأحتمي بذكرياتي معه في ظل حضوره

obeikan.com

الطاغي حتى وهو غائب، اعترفتُ لنفسي أنني كنت أحبه مذ خلقني اللّٰه، وأن حبي له قد صعد على درجات عمري حتى وصل إلى القمة وأن رحيله لم يعنِ هبوط هذا الحب من عليائه.

كان حبًّا متلوّنا بكل الألوان الجميلة؛ بلون الطفولة بكل براءته، ولون الصِّبا بكل شغفه، ولون الأنوثة الذي جاهدتُ كثيرًا لحجْبه عنه وعني... فإذا بالحُجُب تُزال من تلقاء نفسها بعد فقده الأسود.

رحل «ياسر» فصرتُ أعيشه كما لم أعشه في حياته... وكأنني أعوّض نفسي عنه بقدر ما أستطيع وأحاول إلهاءها عن حقيقة أنه لم يعد هنا ولن يعود، صرتُ أسمح لنفسي بتصوره كفتى الأحلام الذي يتجسد جليّا في خيال الفتاة كلما سمعتْ أغنية عاطفية تحبها أو قرأتْ قصيدة يسكنها رجلٌ رائعٌ، صارت ذكرياتنا معًا نديمة وسادتي كل ليلة ...

ولطالما حمدتُ اللّٰه أنه ترك لي شيئا منه.. رسائل تبدو وكأنها كتبتْ بحبرٍ سحريٍ يفوح برائحته ويُومض بملامحه ويُعيد إليّ رنة صوته بقوةٍ، كانت رسائله ولا تزال أثمن ما امتلكتُ في حياتي، الرسائل التي وصلته منّي كانت

obeikan.com

ثمينةً كذلك.. كيف لا وقد تلهّف قلبه للقائها ذات انتظار ولثَمتها عيناه ذات تأملٍ.. لذا فقد كان لابد من استعادتها، ولم يكن ذلك بالأمر العسير؛ فقد كنتُ مقرّبة من والدته وحائزة على ثقتها، استأذنتها يومًا في البحث في غرفته عن أوراق مهمة تخصّ دراستي.

عثرتُ على رسائلي مضمومةً إلى بعضها البعض داخل منديلٍ ناعمٍ رماديّ اللون أسفل قمصانه المطويّة بعناية، تمنيتُ يومها لو كان بمقدوري اختراع حيلةٍ أخرى للاحتفاظ بأحدها! لكن أقصى ما كان يمكنني القيام به هو أن أتجرّأ وأطلب من والدته صورة له.

كانت كريمة للغاية.. تركتني أتصفح ألبوم الصور العتيق لأنتقي منه ما أشاء فاخترتُ صورة حديثة نسبيًا يظهر فيها مبتسمًا ابتسامة صادقة تُبرز شاربه ولحيته الخفيفة، مرتديًا قميصًا مخططًا بالأزرق والأسود ويظهر من خلفه نهر النيل، استنتجتُ أن الصورة التُقطتْ أثناء نُزهة مع زملائه في العمل... نزهة كان قد حدّثني عنها من قبل ذات رسالة.. أشتاقه حدّ الوجع كلما تأملتُ هذه الصورة حتى الآن وبعد مُضي كل هذه السنوات.

كان نسيانه بالمعنى الكامل للنسيان أمـرًا مستحيلاً؛ فبذور الحب التي غرسها في قلبي وسقاها كل يومٍ غدتْ أغصانًا تصل إلى كل خليةٍ بداخلي، كان لا يسعُني أن أنسى، أمكنني فقط أن أغالب الحزن.. وقد ساعدتني الدراسة على ذلك كثيرًا..

الجامعة كانت المكان الوحيد الذي اعتدته دون أن أعتاد وجود «ياسر» فيـه... وهـكذا وجـدتُ مكانًا لا تغتالني فيه الذكريات فاستعنتُ بالله واستعدتُ توازني في فترة أظنها قصيرة.

الكتب و«رشا» كانا كل ما يعنيني من الجامعة بالإضافة إلى بعض الزميلات المقرّبات اللواتي كنتُ التقيهنّ من حينٍ لآخر، معهُن كانت بداية زياراتي لدور رعاية الأطفال أسبوعيًا، لكن حماسهن انخفض شيئًا فشيئًا بينما كان حماسي يتصاعد حتى راودتني ذات يومٍ فكرة أنني لن أكون مضطرة للزواج لأحصل على طفل أو طفلة.. كانت مجرد فكرة مرحة زارتْ خيال شابة متمردة ويبدو أن الله شاء أن تصبح واقعا جميلا صعبا..!

وهكذا مضتْ سنوات الدراسة .. وبدأتْ طلبات الزواج في الوصول إلى بيتنا

بعد تخرجي، كنتُ أُنقِّب في مواصفات المتقدمين بحثًا عن عيبٍ أتشبثُ به وأناضل لإقناع أمي بجوهريته، كان الأمر يزداد صعوبة بتقدم السنين وتحوّل إلى ما يشبه العراك بيننا بعد زواج أخواتي الثلاث – واللاتي يصغُرنني - خلال فترات متقاربة للغاية، والأسوأ هو أن «رشا» باتت تتحدث كأمي تمامًا! الفرق بينهما فقط هو أن خيال أمي لم يكن ليصل لحقيقة الأمر، كانت على قناعة بأن السبب في تأخر زواجي هو عين نسائية شريرة وربما عدة أعين، أما «رشا "فقد كانت تفهمني جيدًا وتلمّح دومًا لما تعرفه ولم أكن أقابل ذكاءها بشيء سوى الاستهجان الساخر..

لم يكن بوسعي الاعتراف بأنني متورطة بحب رجلٍ آخر... إن كان من غير اليسير إقناع الناس بعشق الأحياء؛ فكيف سنقنعهم بعشقنا لأموات!

كان مقدّرا لي أن أخبئَ حبي لـ «ياسر» وأغلّفه بكذبٍ خائفٍ ومراوغةٍ مستميتة، تارة مع نفسي وتارة مع «رشا» التي تجرأتّ ذات نقاش وقالت لي صراحةً أنني مريضة برجلٍ ميت وأن عليّ أن أبحث جدّيًا عن معالجٍ نفسيٍ مشهود له بالكفاءة!

في ظل هذه الضغوطات ظهر «جلال»؛ عميل بالمصرف الذي بدأتُ بالعمل فيه بعد تخرجي بفترة بفضل علاقات أبي الواسعة أولاً وتخرجي بتقدير متميز ثانيًا!

كان رجلاً أنيقًا لطيفًا ومقتدرًا في فن التعامل مع الأنثى، قناصٌ ماهرٌ يعرف كيف يجعل الطريدة تأتي إليه بقدميها، ورغم ذلك لم أقع في حبه البتة!

كل ما في الأمر أنه استحق منّي وقفة للتفكير به؛ ووقفة للتفكير بجدّية - لم تعد مُجدية - فيمن عرضوا عليّ الزواج قبله! ربما لم يكن أفضلهم لكنه كان أذكاهم... فقد حاول طرْق قلبي بينما طرق الآخرون باب منزلي مباشرة! أعرف الآن أن جميعهم كانوا أكثر منه صدقًا والتزامًا، لكن كان هنالك نقطة كبرى في صالحه وهي أن الزواج كان يعني لي الحب الذي جاء هو ليقدّمه، بينما كان الآخرون يعرضون زواجًا باردًا مجرّدًا من كل العواطف أو زواجًا يُفترض أن الحب سيليه رغم أنفه! وكأن الحب ساعة محددة في اليوم لا تخلف موعدها... كأنه ليس منحة إلهية للمحظوظين في هذه الدنيا.. منحة أومن أنها لا تتكرر في حياة الإنسان.

وجوده لم يكن يمنحني السعادة كما عرفتها من قبل لكنه كان يملؤني بالرضا ويلوّح لي بأشياء قد تكون سببًا في سعادة أو في فتات من سعادة.. كفرحة أمي.. كفرصتي للحصول على طفل يشبهني ولو قليلا.. وكنَجَاتي من فكرة أن أتحوّل ذات يوم إلى عجوز وحيدة، ولا أُنكر أنني كنت أبتهج كثيرًا بكل أساليبه الرقيقة الراقية في التعبير عن حبّه

(وإن كنت غير قادرةً على مبادلته الحب فأنا قادرةً على الأقل على احتواء حبه لي والانتشاء به) كان هذا هو المنطق الذي بدأتُ به علاقتنا والتي انتهت مع ظهور زوجته بشكل دراماتيكي في مسرح الأحداث!

المرأة التي أنكرها وأنكر طفلتيها، وكأنها كانت تتوقع هذا منه فحضرتْ بنفسها لإثبات وجودها، سيدة لا يبدو أن زوجها ينقصه شيء.. جميلة، مهذبة، وفي غاية اللّطف واللّباقة حتى وهي تخاطب غريمتها...أي أنا! وإن كانت بدينة ومفرطة في زينتها بعض الشيء.

اعترضتْ طريقي ذات يوم وأنا على وشك مغادرة المصرف بعد نهاية الدوام، لم تكن تعرف أن مجرد تعريفها عن نفسها بكونها زوجته كان كفيلاً

بتخلصها منّي إلى الأبد كخطر يهدد استقرارها الزوجي.

شلّتني المفاجأة..بقيتُ أحملق بها مشدوهة، وحدها لهجتها الساخرة استفزت صمتي:

- «لا تقولي أنكِ لم تكوني تعلمين أنه متزوج !»

بدأتُ أصيح:

- «أقسم لكِ أنني لا أعرف شيئا، لقد رفضتُ الكثير من العُزاب فما الذي يجعلني أقبل الارتباط برجل متزوج... لقد خدعني».

هدأتْ من روّعي وأصرَت على دعوتي لتناول شيء بارد في مقهى قريب كي نتحدث قليلاً، أخبرتها أن زوجها كان يتردد عليّ كمجرد عميل ثم بدأ يُظهر إهتمامه بي، التقينا عدة مرات بعد الدوام وقال ذات لقاء أنه يحبني ويرغب في الزواج منّي، وأنه في انتظار قراري كي يقابل أبي، وفي الحقيقة فقد منحتُ نفسي فرصة للتفكير في الأمر لكنني لم أمنحه موافقتي بشكل نهائي... أخبرني كل شيء عنه باستثناء أنه متزوج وله أطفال.

و بدلاً من أن تثور وجدتها تحدثني عنه بكل هدوء.. ولا أدري كيف يمكن أن

obeikan.com

تكون المرأة هادئة وهي تقول أن زوجها زير نساء وأنها تتجاهل كل دلائل الخيانة التي يُخلّفها وراءه رغم حرصه المتناهي على إخفائها!

كان واضحًا أن المظهر الاجتماعي هو كل ما يعنيها، يسعها العيش مع رجل يقسّم وقته بينها وبين أخريات ما دام لا يعرف أنها تعرف حقيقته، وبالتالي فكرامتها محفوظة أمامه.. أما الزواج فهو أمرٌ لا يمكن إخفاؤه بالطبع مما سيضع كبرياءها في موقف صعب أمامه وأمام الناس!

طريقة تفكيرها أصابتني بالاشمئزاز... كنتُ على وشك أن أسألها عن الشيء الذي يضطرها للكذب على نفسها كي تحافظ على علاقتها الزوجية متينة أمام الناس في ذات الوقت الذي تعرف فيه كم هي متهالكة، تراجعتُ سريعًا وبدتْ هي وكأنها قرأت أفكاري فشرعتْ تقول:

- «المرأة الذكية تتجنب خوض معارك تعرف مسبقًا أنها ستخرج منها بهزيمة كبرى، ما الذي سيحدث لو واجهته بخياناته؟ هل تظنين أنه سيرتعد ويتراجع؟ على العكس تمامًا فهو عنيد للغاية ...محاولة ثنيه عن أي شيء تعني زيادة إصراره عليه كما أنه لا يخشى خسارتي أو خسارة أي شخص

openkan.com

يقف في وجه رغباته! إن فُضح الأمر فسيتصرف ببجاحة أكبر.. لأنه لن يبقى هناك ما يخشى انكشافه... أما الآن فهو يُدلّلني كي لا يثير شكوكي، شعوره بالذنب يصب في صالحي خصوصًا وأنا أحرص على الإهتمام بمظهري وبيتي وصغاري..

إنه كعصفور ضاق ذرعًا بالقفص ولن يُضيرني شيء إن سمحتُ له بالتحليق خارجه لبعض الوقت... سيدور ويدور ثم يعود إلى مكانه راضٍ بمساحة الحرية التي يظن أنه انتزعها وهي في حقيقة الأمر متاحة له تحت اشرافي أنا!»

– إذن فبوسعكِ التعايش مع الخيانة، الزواج بأخرى هو الخط الأحمر الوحيد الذي تخشين أن يتجاوزه زوجك!

– ولهذا فقد انزعجتُ كثيرًا حينما علمت بقصته معكِ، شعرت للمرة الأولى أن زمام الأمور قد يفلت من يدي.

– يمكنك أن تطمئني الآن ..لكن اسمحي لي أن اسألك..

ما الذي جعلك تعرفين أنه كان ينوي الزواج منّي؟

obeikan.com

ابتسمتْ قائلة:

«أصبحتُ خبيرة في تحديد مسار علاقاته، لم يكن جادًا مع واحدة قبلك ولا أظنه سيفعل مستقبلاً ، كنتِ محطة استثنائية يا أستاذة سارة والحمدلله أنك قررتِ الانسحاب، أليس كذلك ؟ «

أضحكتني نبرة القلق في سؤالها فهززتُ رأسي ايجابا، تابعتْ هي بنفس النبرة:

«لقد سألتُ عنكِ كثيرًا قبل أن آتي للقائك.. ما عرفته عنكِ هو الذي شجعني على الحضور وأحمد الله أنكِ لم تخيبي ظني، أرجو فقط أن يظل هذا اللقاء سرٌ بيننا، أرجوكِ تحجّجي بأي حجة لإنهاء العلاقة.. أخبريه أنكِ عرفتِ أن له عائلة إن شئتِ ولكن عن طريق شخص غيري».

- لا تقلقي. أعدكِ أن ينتهي الأمر على الوجه الذي يرضيكِ، لديّ فقط سؤال مُلح ربما تملكين إجابته.. إلى متى كان زوجك سيكذب عليّ، متى كنتُ سأعرف الحقيقة منه شخصيًا؟

أطلقتْ ضحكة مصطنعة قبل أن تجيبني:

obeikan.com

- «لم تعرفيه بعد، جلال مغرور جدًا.. لديه قناعة بأنه مغناطيس نسائي فعّال، لا شك أنه كان يراهن على تعلقكِ به ليضعكِ أمام الأمر الواقع بمجرد أن يشعر بإحكام سيطرته على عواطفكِ ... في اليوم الذي كنتِ ستعلنين فيه عن قبولكِ الزواج كان سيروي لكِ قصة زواجنا مغلفة بألف كذبة وكذبة.. نسيتُ أن أخبركِ أيضًا أنه مراوغٌ ومُحتال من الطراز الأول.. أظنه كان سيقنعكِ بشكل أو بآخر أنه معذّب معي ومقيد بطفلتيه فقط وأن الخلاص سيكون على يديكِ وحدكِ يا حبّه الأول والأخير!»

×××××

بتُّ ليلتها في أحضان عدة مشاعر متناقضة أخذتْ تتقاذفني فيما بينها، صدمة كبرى في رجل يعرف جيدًا كيف يخبئ أجزاءه المشوهة ويستعرض أجزاءه المشرّفة،حيرة في أمر امرأة تضع كرامتها تحت قدميها لتصير أعلى في مواجهة من يتطاول عليها بذكورته؛ هل كان ذكائي وإحساسي قاصران في إدراك حقيقة رجل التبس حبه بخداعه؟، وهل أحبني حقًا أم هي رغبة في امتلاك تحفة أخرى يضمها لمجموعة مقتنياته ولا يُبالي

obeikan.com

بتحطيمها متى أزعجه وجودها؟ وأخيرًا.. إحساس كريه بخيبة الأمل .

لا تضايقني الخيبة بقدر ما يضايقني الأمل الذي وضعته فيمن لا يستحق، لكنني اعتدتُ مداواة كل ألمٍ بحقيقة أن الأقدار تقع لا محالة حتى وإن جاهدنا للحيلولة دونها، الأقدار هي مشيئة الله وهي بذلك تستحق احترامنا مهما أوجعتنا.

obeikan.com

الفصل الحادي عشر

أصفر ورحبٌ ضوء المساء.

حانيةٌ نسمات أبريل؛

لقد تأخرتَ لسنواتٍ عديدة،

ورغمَ ذلك فأنا فرحةٌ بك.

إلى هُنا.. اجلسْ قريباً منّي،

وانظر بعينينِ فرحتين:

obeikan.com

ها هو ذا دفترٌ أزرق

يضمُّ أشعاري الطفوليّة

اعذرني؛ فقدْ عشتُ في حداد،

وقلّما فرحتُ بالشمس.

اعذرني، اعذرني، فقد استقبلتُ

الكثيرينَ غيرك على أنهّم أنت!

كنتُ غارقة في بحر الشاعرة الروسية «آنا أخماتوفا» حتى انتشلني منه صوتٌ عجائزيٌ باكٍ تسلل إليّ عبر هاتفي المحمول:

- «خالتك سِعدية ماتت يا سارة»

×××××

ذات مساءٍ بعيدٍ هاتفني «ياسر»، لازالت كلماته ترنّ بداخلي حتى الآن لاسيَّما وأن مكالماتنا الهاتفية كانت نادرة بحكم أنه لم يكن لدينا في ذلك الحين هواتف خاصة.

أتذكر نبرة صوته تلك وكأنني سمعتها البارحة:

- «سارة! بعد صلاة العشاء سأذهب إلى البقالة لشراء بعض الحاجيّات لأمي، ماذا أحضر لكِ معي؟ «

- خذني معك، تعرف أن عثمان لن يمانع إن أخبرته أنك ستصطحبني.

- أعرف كذلك أن إمتحان الشهادة الثانوية قد اقترب كثيرًا وأننا اتفقنا أن لا تبددي وقتكِ في غير المذاكرة، وعدتكِ ببرنامجٍ ترفيهيٍ كبير بعد أن تقدمي امتحاناتك.

- تعبتُ يا ياسر.. لم أعد أرى الشارع إلا ذهابًا للمدرسة أو عودة منها.

- لا بأس يا عزيزتي..إنها السنة الأخيرة في المدرسة..

سيتغير كل شيء حينما تنجحين بتفوق وتنتسبين للجامعة التي تختارينها، هيا..لا تضيعي الفرصة، ماذا تريدين من البقالة؟

- امممم أحضر لي شيئًا على ذوقك !

×××××

obeikan.com

نمتُ ليلتها محتضنة إحدى كتبي المدرسية لأستيقظ فزعةً على صراخ لم أميز في البدء إن كان نهاية حلمٍ أم بداية عودة إلى الواقع، عرفتُ أن كارثة ما قد وقعتْ من استمرار الصوت وارتفاعه وامتزاجه بأصوات أخرى نائحة، كان أبعد من أن يكون منبعثًا من المنزل... لا شك أنه ينبعث من إحدى البيوت القريبة.

استبدلتُ ثوب النوم القصير بأقرب جلباب وجدته في خزانتي وأذكر أنه كان بني اللون، حملتُ وشاحًا أسودَ وهممتُ بالخروج لاستطلاع الأمر، فوجئت حينها بشقيقتي الصغرى وهي تقتحم الغرفة باندفاع، أثار وجهها الباكي الذعر بداخلي، كمّمني الخوف وفي الحقيقة فإنها لم تمهلني كي أسأل..صاحتْ بألم:

- «وقع حادث لياسر»

«ياسر».....!

هل قالت «ياسر» ؟

هل نطقتْ بالاسم الوحيد الذي يميتني أن يقع لصاحبه أي مكروه من بين

obeikan.com

كل ساكني هذا الحي بل والمدينة بأسرها.

بدأ صوتٌ عميقٌ في الانبعاث من مكان ما بداخلي:

– إنه مجرد حادث، مرّ كثيرون بحوادث خرجوا منها بمجرد جروح ورضوض، لا شك أنهن يصرخن خوفًا عليه فقط.

قاطعتْ الصغيرة ذلك الصوت قائلة:

– «أمي أرسلتني لإيقاظك كي تخرجي للعزاء»

– عزاء!

كلمة لم أفهم معناها في ذلك الحين، خرجتُ كامرأة آلية تتبعني شقيقتي المذهولة مما بدا لها (لا مبالاة).

كان في المنزل الغارق في الصراخ والدموع ثلاث وجوه فقط تشبه وجهي ليلتها، انضممتُ إليهن.. للأم التي أضحت ثكلى في غمضة عين وللشقيقتين اللتين خسرتا أقوى رابطة دم وأصفى رفيق روح، خسرتا رجلاً سندًا قلّما يجود الزمان بمثله.

obeikan.com

صرنا أربع وجوه متخشبة، أعين محملقة في الفضاء، أفواه لا تتجاوب أبدا مع ما يفترض أنه يصل إلى آذانها، ميّزتُ صوت أمي المتحشرج من بين الأصوات الكثيرة المختلطة ببعضها.. كانت تهزّ كتفي والدة» ياسر» وتقول أو تحاول أن تقول:

– «ابنك قابل ربّه الكريم.. افهمي هذا الآن حتى لا تفقدي عقلكِ فيما بعد، استغفري واصبري...لقد كان ولدًا صالحًا، ساعديه بدعواتكِ، كلنا هنا سندعو له».

تصيح أصوات أخرى في شقيقتيه «نجوى» و» أحلام» بما معناه:

– «كُن قويات كي تقوى أمَّكُن»

التفّ حولنا جمعٌ من النسوة في محاولات لإيقاظ أمه وشقيقتيه من سباتهِن، ويبدو أنني كنت غير مرئية يومها حتى في عينيّ أمي، لم يفلح ذلك الجمع في إخراجنا – أو إخراجي شخصيًا – من غمرة الصدمة.

فقط عندما خرج الرجال من البيت حاملين على أكتافهم شيئا قيل أنه جنازة «ياسر» انطلقتْ الصرخات الهستيرية من شقيقتيه وأغشي على

والدته وعليّ.

×××××

منذ ذلك اليوم وأنا أبكي «ياسر» بحرقةٍ كلما حضرتُ عزاءً، عشرون عامًا مضتْ وأنا أبكيه كلما حلّت رهبة الموت في مكان ما، اليوم فقط بكيتُ لرحيل شخص يهمني أمره، كانت الخالة «سعدية» غالية عليّ بحق، رحيلها يعني أن الطيبين القلائل الذين أثق بهم قد نقصوا واحدًا، يصعب عليّ أن أدرك حقيقة أنني لن أرى وجهها أو أسمع صوتها بعد اليوم، يصعب عليّ أن يمرّ الموت بجانبي بكل هذه القسوة للمرة الثانية:

– رحمكِ اللّه يا من كنتِ سندًا لي ولـ «براءة» حينما تخاذل من هم أقوى منكِ عن ذلك.

كنتُ سعيدة فقط بكثرة المُعزّيات لامرأة أعرف أنه ليس لها الكثير من الأقارب هنا، لكن يبدو أن طيبتها خلقتْ لها أهلاً وأحباء في كل مكان سبق وتواجدتْ فيه، صحيح أن منهن من خُضن في أحاديث عن أمور كثيرة ليس لها علاقة بالحزن أو الموت كوصفات الطعام وأخبار الجيران والشكاوى

obeikan.com

من زوجات الأبناء لكنهن اجتمعّن بغرض الترحُّم عليها على كل حال!

اقتحمتُ صيوان الرجال بلا استئذانٍ من أحدهم في مخالفةٍ صريحة للعادات والتقاليد التي لم تكن لتهمني حينها أكثر من رؤية العم «عبد الباقي».

أجهش باكيًا حالمًا لمحني وصاح بألم:

- «لقد أخطأ الموت طريقه يا ابنتي، تجاوز شيبتي وقهري وعجزي ليختطف حيويتها وعطاءها، اقتطفها كما تقطف الزهرة النّضرة ومرّ بي دونما اكتراثٍ كما تُهمَل نبتة عشوائية لا فائدة منها».

تعالتّ أصوات الرجال لتهدئته وأمره بالاستغفار وذكر الله بينما تطلعتّ عيونهم إليّ.. متسائلة، مندهشة، معاتبة ومستاءة، هربتُ من سهام أعينهم ودموع عينيه إلى حزني على فقد امرأة أُحبها وخوفي من فقد طفلة كان وجودها معي مرتبطًا بوجود تلك المرأة في حياتنا...

وهل هناك ما يمكن أن يرعب أمًّا أكثر من فقدان صغيرها؟

مضتّ ثلاث أيام ثم رحل العم «عبد الباقي»إلى قريته مع أقربائه الذين

حضروا للعزاء، كانت «براءة» تقيم في تلك الفترة بمنزل «رشا» التي قالت لزوجها أنها ابنة صديقة تعرضتْ لوعكة صحّية ألزمتها المستشفى وأنه ليس لها أو لزوجها أقارب في المدينة.

كانت هذه الكذبة بتحريض منّي، فالذعر الذي قابلتْ به أمي حقيقة «براءة» جعلني أشك بقدرة كل الناس على تفهّم الموقف لذا فقد طلبتُ منها أن يظل الأمر سرًا بيننا، ولم أحتج لكثير من الذكاء حتى أدرك أن عليّ اتخاذ أصعب قرار في حياتي في أسرع وقتٍ ممكنٍ.

×××××

عرجتُ في ذلك المساء على والدة « ياسر»... شيءٌ ما قادني إليها، وربما يكون قلبي قد قيّدها في سجلاته كرفيقة أحزان! استقبلتني كعادتها بابتسامةٍ حانية وضمتني بين ذراعيها، غالبتُ رغبتي في البكاء بين يديها كي لا أثير ذُعرها لكنها أحست رغم ذلك أنني لستُ على ما يرام، أخبرتها أنني عائدة للتوّ من عزاء سيدة غالية على قلبي.. فأرسلَتْ لها باقة من الدعوات الطيبة.

حاولتُ بعد رحيل «ياسر» تعويض غيابه بالتقرب إلى من تسري دماؤه في عروقهم، وجدتُ في كلٍ منهم شيئًا منه.. فسرى بداخلي اطمئنان يشبه ذلك الذي يغمر الطفل الضائع حينما يلمح في الزحام وجهًا يعرفه جيدًا.

لشقيقته الكبرى «نجوى» إتساع عينيه وعمق نظرته، ولشقيقته الثانية «أحلام» دفء صوته وطريقته في الحديث، أما والدته فقد اخترتها لتكون ملاذي الأول فكانت لي خير ملاذ، كنتُ أشعر أنها الشخص الوحيد الذي سيشعر بي في كل هذه الدنيا، فهي المرأة التي كان «ياسر» جزءً من جسدها ذات يوم وعاش طيلة حياته جزءً من قلبها... وحدها تعرف كم هو موجعٌ فراقه، وكم هو غائرٌ الجرح الذي أحدثه رحيله، وحدها تعرف حجم الفجيعة ومرارة كل ما كان حلوٌ به.. تشعر مثلي وأكثر بثقل الأيام التي تلتْ فقده وسخافة المحاولات التي تسعى للتخفيف من ألم وداعه....

بدأتُ بالتردد عليها بعدما لاحظتُ أن زيارات جاراتها وقريباتها من مجددات الأحزان قد قلّت نسبيًا، كنتُ أزورها حينما أتأكد أنها بمفردها أو برفقة بناتها فقط، الزيارة الأولى للمنزل بعد رحيل «ياسر» كانت قاسيةً

obeikan.com

للغاية ففي كل زاوية من زواياه ذكرى لنا.

في ذلك الفناء الرَّحب كنتُ طفلةً صغيرةً تركض ضاحكة وتصرخ بجنون كلما شعرتِ أن «ياسر» على وشك اللحاق بها كي يسترجع غرضًا من أغراضه التي سرقتها خصيصًا لتبدأ لعبة الملاحقة الممتعة!

على تلك الطاولة المستديرة في صالة المنزل كنتُ طالبة مُجدّة أمامه، لا زالت كل أساليبه المميزة في الثواب والعقاب مرتسمة بذهني حتى الآن.

أمام باب هذا المطبخ دار بيننا حوارٌ قصيرٌ في أول يوم من رمضان الماضي، لمَحَني وأنا على وشك الانصرف فحيّاني وسألني عما أحضرته لهم؛ قلتُ له أنها مفاجأة من إعدادي وتقديمي!.. وفي موعد رسالته المسائية كتب لي أن مفاجأتي كانت ألذ مفاجأة يتذوقها في حياته.

مواقف كثيرة حاصرت ذاكرتي في ذات الوقت، هممتُ بالانصراف قبل أن تُهاجمني نوبة بكاءٍ في منزلٍ كل ما فيه قادر على أن يُبكيني، استبقتني والدته، فوجئتُ بنسمة الفرح التي زارتني في غمرة حزني حينما قالت لي:

- «ابقِ معي قليلا، كوني قريبة يا سارة.. دعيني أراكِ دائمًا فأنتِ أكثر من

obeikan.com

يذكرني بياسر.. لو كانت له أخت صغرى لما أحبها كما كان يحبكِ».

نفذتُ وصيتها وصرتُ أقرب إليهنّ مما كنتُ عليه قبل رحيله، بذلتُ مجهودًا لكي لا أكون من مُجددات الأحزان اللواتي كُن يتفنّن في تهييج جراح القلوب بالحديث عن شبابه الذي واراه الثرى ورجولته التي سيفتقدها الجميع وملامحه الجميلة التي لن تُرى مجددًا، تعمدتُ ألا آتي على ذكر فقيدي وفقيدهن كي لا تبكي قلوبهن رغم أن قلبي لم يكن يتوق لشيءٍ بقدر ما كان يتوق لسماع أي شيء عنه؛ أي قصة قديمة من عهد طفولته، أي تفاصيل عن يومياته، عن الأشياء التي كانت تفرحه أو تغضبه منهن، عن عاداته الجميلة والسيئة كما كُن يرينها.

لكنني كنتُ أكتفي برؤيته من خلالهن، أشعر في حضرتهن أنني صرتُ أقرب إليه، أراه في عينّي «نجوى» وأسمعه في صوت «أحلام» وأحتضن روحه كلما عانقتُ أمه، أشعر في منزلهن أنه يشاركنا الجلسة ويبتسم فرحًا باجتماع كل من أحبوه وسيحبونه بلا انتهاء في مكان واحد.

قدمّتِ لي والدته ذات زيارة أكياسًا ملأى بالكتب...قالت أنه أخبرها من

قبل أنني الشخص الوحيد الذي يهتم مثله بالقراءة، تمنيتُ أن تواتيني الجرأة لأسألها عن كل مارواه عنّي من أخبار.

حينما يُضنينا الغياب كعطشٍ مُوجعٍ فلا شيء يُسَري عنّا سوى تساقط الذكريات بردًا وسلامًا على قلوبنا الظمأى.

كان «ياسر» معتادا على دعوتي لقراءة ما أنهاه من كتب لتكون موضوعًا لإحدى رسائلنا أو لقاءاتنا القصيرة فيما بعد، ولطالما طلب منّي الاحتفاظ بها، كنت أشكره بامتنان وأعتذر عن ذلك رغم رغبتي به لأنه لم يكن في الغرفة التي تشاركني إياها إحدى شقيقاتي متسع للاحتفاظ بالكتب بينما كان لديه مكتبة كبيرة.

كان قد وعدني قبل أشهرٍ من رحيله أنه سيبتاع لي ذات يومٍ مكتبة تتسع لكل تلك الكتب ولكتب جديدة أيضًا، لم يكن يعرف أن عمره أقصر من وعوده وأقصر من أحلامي وأن ما قرأه وما لم يمهلْه القدر لقراءته سيصبحان ملكي قريبًا.

×××××

مضت خمس سنوات على وفاته حتى ابتاع أبي مكتبةً عظيمة الاتساع ليُزين بها صالة المنزل؛ أذكر جيدًا ذلك الصباح الذي قالت لي فيه أمي باسمة أن مكتبة ضخمة ستصل إلى بيتنا اليوم وأنني سأكون سيدتُها لأنه لا أحد سِواي في المنزل يملك ما يصلح للقراءة سوى الجرائد والمجلات! أذكر أيضًا أنني بادلتها الابتسامة دون تعليقٍ وترحمتُ في سرّي على من علّمني القراءة من بين الأشياء الكثيرة التي علّمني إيّاها.

كم أفتقده هذه الأيام، ليته كان هنا ليخبرني كيف أتصرف، وكيف يمكن لأنثى أن تختار ما بين أمها وابنتها، كيف يمكن لإنسانٍ أن يفاضل ما بين خذلان أحبّ الناس إليه!

هل أصير شبيهة بـ «عثمان» الذي طالما ملأني احتقاره لما سبّبه من ألم لأمي؟ هل أتخلى عن الطفلة التي أمثل لها الأمان في عالم لن يكون إلا مُوحشًا؟

خذلان أمي سيكون أكبر، أما «براءة «فستبكي لأيام ثم ستنسى، لازالت صغيرة، لكن حاجة «براءة» إليّ ملموسة وممتدة لسنوات، حاجة عاطفية

واجتماعية ومادية أما أمي فلديها ثلاث غيري؛ ثلاثة أبناء من أصل خمسة!

كم هذا موجعٌ؛ موجعٌ جدًا أن ينقسم قلب الأم لأجزاء قابلة للخسارة.

لكن ماذا عن قلبي أنا، قلبي الذي اختزلت كل عواطفه الحيّة في طفلة أهدد نفسي بخسارتها المحتومة مقابل كسب أمي.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني عشر

أمضيتُ ساعاتٍ طُوال في تقليب خياراتي المُرة في رأسي الذي كاد الصداع يتلف خلاياه، نبّهني الوجع في بطني إلى كوني لم أتناول شيئًا منذ الصباح، هاتفتُ المطعم المواجه للمحل وطلبت بعض فطائر الجبن واللحم المفروم وعصير برتقال...

اعتدتُ تناول الغداء برفقة أمي والعودة إلى المحل بعد صلاة المغرب لكنني أخبرتها أنني في انتظار بضاعة جديدة وقد أتأخر عن المنزل طيلة هذا الأسبوع، تعمدتُ تجنبها وتجنب «براءة» قدر المستطاع لأحصل على

obeikan.com

قرار عقلاني أكثر من كونه عاطفي، ولأنأى بنفسي عن الوجع الذي ستسببه رؤية كل منهما وأنا أتخيل أن فراقنا قد يكون وشيكًا

أنهيتُ طعامي ونظرتُ إلى ساعة الهاتف بتملل، في العادة يكون المحل مغلقًا في مثل هذا الوقت فلماذا لا أغلقه الآن وأنشغل بأي شيء يُريحني قليلا من التفكير في مُعضلتي، شعرتُ بالغيمة الكبيرة التي ظللتِ السماء بالخارج فتحمستُ للخروج، وجدتُني أتجاوز سيارتي وأمشي على الرصيف بلا وِجهة معينة.

على الرصيف المقابل تمكُث شابة صغيرة أمام أدوات إعداد الشاي والقهوة وما شابههما، وقد تناثرتْ حولها بضع مقاعد يجلس عليها شباب من أعمار مختلفة، يدخنون ويرتشفون ما تعدّه لهم الفتاة.

واصلتُ المسير بهدوء لأجد نفسي أمام شجارٍ مروريّ أحد أطرافه رجل متقدم في السن ينعتُ الطرف الآخر بالتخلف والحيوانية! كان الرجل الثاني سائق سيارة أجرة، يحاول فضّ النزاع وإخماد ثورة الرجل الذي يصرخ أمامه، ربما إكرامًا لسنّه أو إكرامًا للجالسَين في المقعد الخلفي من

سيارته، فقد كانا يبدوان كعروسين!

أشفقتُ على العروس كثيرًا، أولاً لأنها تخرج في مشاويرها الأولى مع زوجها في سيارة أجرة، ومن أين لزوجها المسكين بسيارة خاصة في ظل الوضع الاقتصادي الراهن، لقد حقق إنجازًا هائلاً كونه استطاع الزواج أصلاً، وربما كانت له سيارة وقام ببيعها للإيفاء بمستلزمات الزفاف الخنفشارية التي باتت من الضروريات في هذه الأيام!

أصبح المجتمع مضحكًا بحق؛ الفقير والغني ومتوسط الدخل كلهم يجبرون بعضهم البعض على إقامة ذات الطقوس التعسفية، ولاشيء في النهاية سوى ديون متراكمة أو خسارة فادحة لمدخرات سنين طوال وكمية هائلة من ثرثرات (الناس) الذين أجريتِ كل تلك الطقوس للظهور بمظهر لائق أمامهم! الشيء الثاني الذي جعل العروس مثيرة للشفقة في نظري هو ذات الشيء الذي جعلني أكتشف كونها عروسًا! كانت ترتدي الثوب التقليدي وإن لم يكن تقليديا البتة! فقد كان بلون برتقاليّ شديد اللمعان وقد تناثرتْ عليه فصوص أتوق لمعرفة المادة التي صُنعت منها، وكانت جميعها لامعة.

من رحمة الله أن الشمس لم تكن ساطعة حينها لأنها كانت ستشكل الضلع الأقوى في مثلث اللمعان المسبب لصداع لانهائي! كان وجهها مطليًا بلون شديد البياض يتناقض مع لون كفها الذي كان يهتز على وجهها بعصبية وقد ظهرتْ في نهايته أظافرها الطويلة المطلية بنفس لون الثوب الكارثي والذي يبدو إن لم تخنّي عيناي أنه كان يستقر على جفنيها أيضًا!

منذ متى وأنا أتتبع تفاصيل الآخرين بكل هذا الفضول! ابتعدتُ بضيقٍ لا أدري سببه، توقفتُ عند بقالة صغيرة لشراء علبة مشروبات غازية ثم واصلتُ طريقي حتى استوقفني منظر صبيّ صغيرٍ حافي القدمين بملابس متسخة وقد حاصر قطة صغيرة في محاولة مجهولة الأسباب لإيذائها، أدهشني الغضب الهائل الذي صبَبْته على الصبي الذي فرّ هاربًا، أهو فرط إنسانية يا تُرى أم فرط توتر كان يحتاج لأي موقف يظهر فيه!

ثمة رجل عجوز يراقبني أمام باب أحد البيوت في الجهة المقابلة، ألا زال هناك عجائز يقضون فترة العصر مع جريدة وكوب شاي أمام باب المنزل؟ بَدَا ككائن منسي مهمل، لم يرقّ لي التفكير بحاله كما فعلتُ مع العروس والصبي وهذا لسبب مجهول أيضًا!

تعالى صوت المؤذن معلنًا حلول موعد صلاة المغرب فيما بدأ اللون الأزرق في التسلل إلى صفحة السماء، بعض الصبية يسيرون في مجموعات بملابس رياضية متسخة، لا بد أنهم قد فرغوا للتو من مباراة كرة قدم في ساحة ترابية قريبة، يسير بعض المارة نحو المسجد ويركض البعض خلف حافلة ظهرت للتو في الشارع المقابل.

وهنا خطرتِ لي فكرة؛ لماذا لا أكمل المغامرة وأعود إلى المحل بهذه الحافلة؟ أثارتِ فيّ الفكرة مشاعر كثيرة؛ حماسٌ، خوفٌ غير مفسر، مرحٌ، واحتقارٌ لما بَدَا لي نوعًا من الأرستقراطية، إذ أنني أنظر لاستخدام الحافلة كتجربة فريدة لكسر الروتين في الوقت الذي تشكّل فيه الروتين الشاق للكثير من الناس إن لم يكن معظمهم

احتجتُ للركض قليلاً حتى ألحق بالحافلة، ثمة مقعدٌ شاغرٌ في المنتصف بين شاب ساهمٍ وامرأة لا يتوقف رضيعها عن الصراخ، مضتْ بضع دقائق وأنا أحاول التطلّع إلى النافذة نصف المفتوحة رغم رأس الرضيع الذي كانت أمه تُأرجحه إلى الأعلى والأسفل في محاولة لتهدئته.

obeikan.com

بدأتُ أشعر بما يشبه التربيت أسفل ظهري، كان واضحا أن الجار الآخر يحاول مضايقتي بما لا يظنه هو مبعثًا للضيق! أدرتُ رأسي نحوه وفي نيتي التحدث إليه أكثر من أي شي آخر لكنه أشاح بوجهه حيث جاره من الناحية الأخرى، كدتُ أغوص مجددًا في الأفكار التي أحاول أخذ استراحة منها، صورة أمي وصوت «براءة» تَدَاخَلا في ذهني بطريقة تعذيبية.

قبل أن تُراودني المزيد من الصور والأصوات كانت اللمسات إياها تعود مجددًا وبشكل أكثر وضوحًا، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أهوي على رأسه بحقيبتي التي أسمتها «رشا» ذاتَ مداعبةٍ بالصندوق الخشبي! وعوضًا عن صوت «براءة « ووجه أمي كانت وجوه وأصوات كل من في الحافلة موجّهة نحوي في عبارات ونظرات ميّزتُ منها ما سمح لي به ذهني المشتت في تلك الأثناء، كانت الحافلة قد توقفتْ منذ ثوانٍ وبدا الشاب وكأنه يحاول النزول لكنني سبقته بسرعة وخفة دهشتُ لهما، لم أشعر بخوفي وذلك التسارع في نبضات قلبي إلا حينما أصبحتُ في الشارع، ولحسن الحظ كان المحل قريبًا.

دلفتُ على عجلٍ وأخرجتُ علبة المشروبات الغازية التي فقدتْ الكثير من برودتها، خِلتني سأشربها دفعة واحدة لكن صوت إحدى زبوناتي وهي تلقي التحية استوقفني.

ها قد عدتُ إلى قوقعتي الصغيرة الدافئة، إلى عالمي الذي شعرتُ اليوم بمدى بساطته أمام العالم الخارجي الشاسع الذي يبدو أنني عشتُ في عزلة كبيرة عنه.

خمس وثلاثون عامًا من العزلة !

×××××

بعد يومين - أي ذات جمعة- خرجتُ من المنزل باكرًا، أخبرتُ أمي أنني سأعود قريبًا لتناول الإفطار برفقة أخواتي في موعد زيارتهن الأسبوعي.

كان الصمت يخيّم على المكان..لا يقطعه سوى صوتي الحاد، والأعين تدور بدهشة ما بيني وبين الصغيرة التي تقف بجواري مُمسكة بيدي، لا أدري من أين أتيتُ بكل تلك الجرأة وبكل ذلك الثبات وأنا أقول أمامهم جميعا بصوت قوي:

obeikan.com

- أمي! هذه هي الصغيرة التي حدثتكِ عنها من قبل، آسفة لأنني اضطررتُ لعدم إخبارك أنني أخذتها لتعيش تحت رعايتي في منزل امرأة أعرفها، لكن المرأة توفيتِ الآن ولم يعُد للطفلة أحد سواي؛ فكان يتوجب عليّ أن أتخد قرارًا بشأنها وقد اتخذته الآن:

لن أتزوج، سأكرس كل وقتي وعواطفي لها، بقدر ما أحبكِ وأحتاجكِ فهذه الطفلة تحبني وتحتاجني، إن خذلتها وأخرجتها من حياتي فسأشعر بنفس الأوجاع التي ستشعرين بها في حال ابتعدتُ عنكِ، لا أقْوى على الاستغناء عنها ولا عنكِ يا أمي، لذا أرجوكِ لا تصعّبي الأمور عليّ، اقبلينا معًا في بيتكِ، أو اطردينا معا، فأنا لن أتخلى عنها ما دمتُ حية.

رسالة من المستقبل

أمي الحبيبة!!

ها قد مضى أسبوع على رحيلي، أشتاقكِ جدا..

لا تعرفين كم أجاهد لإخفاء آثار الدموع في صوتي كلما هاتفتكِ، أتعجب من أن يكون صوتك قريبًا للغاية بينما تفصل قارات بيني وبين حضنكِ ووجهك، أحتاجكِ كثيرا يا أمي، تماما كما كنتُ أحتاجكِ في طفولتي، تعلمين أنني لستُ كباقي الأطفال الذين يتناسب احتياجهم لأمهاتهم بشكل عكسيّ مع تقدمهم في العمر؛ فالسيناريو الخاص بحياتهم يتضمن العديد من الأشخاص بينما ليس في قصة حياتي بطل سواكِ.

obeikan.com

أكتب لكِ هنا ما لم أستطع قوله يومًا أمام عينيكِ، تصورتُ أنني سأجرؤ وأقوله هاتفيًا لكنني فشلتُ في ذلك أيضًا فأدركتُ أن البريد الإلكتروني هو وسيلتي الوحيدة لإيصاله إليكِ، دعيني أبدأ من النهاية

لقد تحججتُ بالدراسات العليا لكي أسافر لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي وراء رحيلي، لم أرحل لأحقق هدفًا ثم أعود بعد إنجازه، لقد هربت..

اخترتُ أن أسير بقدميّ إلى مهجر لا ينبذني بدلاً من أعيش في منفى اسمه وطني، وطن يلفظني كل يوم بازدراء كما يلفظ البحر سمكة ميتة، إلى متى سأحتمل تبعات ذنب اقترف قبل أن أخلق، إلى متى سأتأرجح بين دوريّ المجرم والضحية، بين مقاصل الاحتقار وسياط الشفقة.

أذكر شجرة النيم التي تحبينها؛ عملاقة، عظيمة.. أصلها ثابت وفرعها في السماء وأخضرها يشيع السلام في دواخلي، لكنها بلا ثمر ولا أزهار ولا شذى، مُرة كالعلقم وصلبة إلى حد القسوة، تشبه تمامًا تلك الأرض التي كنتُ بحاجة للهرب منها بقدر ما أحبها...

هرب الكثيرون ولازال هنالك الكثيرون ممن ينظرون إلى سماءٍ مظلمةٍ

ويحلمون بأرض تشابه في بعدها أبعد نجمة تمتد إليها نواظرهم، هناك من رحل أو يرغب في الرحيل لأن كل شيء لم يعد في متناول يده، ولأن البقاء حتى آخر الشهر دون ديونٍ أو تقشفٍ بات محض خرافةٍ لا يمكن أن تندرج تحت قائمة توقعاته اليومية أو الشهرية أو حتى السنوية، هناك من رحل لأن له صوتًا عاليًا لا يستطيع أن يُخرسه، صوت أعلى من أن يختفي في زحام الأصوات الكثيرة الخافتة.

وهناك الراحلون بحثًا عن سلم علمي يرتقونه، وآخرون ضاقوا ذرعًا بقيود اجتماعية كبّلتهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، كل هؤلاء رحلوا بمحض إرادتهم ظاهريًا بينما هم في حقيقة الأمر مطرودون، مُبعدون قسرًا عن ظلالٍ وارفةٍ كان يسعها أن تحتويهم لكنها أحجمتْ!

لستُ واحدة من هؤلاء؛ فقد كنتُ أعيش معكِ في ترف، صوتي أضعف من أن يزعج السلطات وقواي الاحتجاجية لا تتعدى الهمهمات الخافتة التي تمارسها الأغلبية العظمى من الشعب مختومة بتنهيدة و«حسبي الله ونعم الوكيل».

ولم أملك الجرأة كي أطلب شيئًا من المجتمع فيقبله أو يرفضه، وكيف أطلب شيئًا ممن يستكثرون عليّ مجرد التنفس؟!، حتى الدراسة كانت مجرد حجة كما أخبرتكِ.

أسبابي مختلفة كوجعي، كان حلمي يا أمي أن يأتي يوم يقيّمني فيه الناس بعد أن يتحدثوا إليّ على الأقل! وقد أيقنتُ منذ زمن بعيد أن هذا اليوم لن تشرق شمسه في تلك البلاد وأن كل شيء جميل ينتهي حينما يعرف الآخرون أنني ولدتُ في مسرح جريمة ارتكبها اثنان لم ولن أعرفهما يومًا!

انسحبا ببساطة .. واتُّهمتُ أنا إلى الأبد. أتوق حقا للتعرف إلى المرأة التي وضعتني، أي النساء كانت يا تُرى؟ بائعة هوى، فتاة طائشة خدعها عشيق ما، زوجة خائنة اكتشفها زوجها، أو مغتصبة؟؟؟

الاحتمالات كثيرة وكلها لا تغيّر من واقع الأمر، أنه مجرد فضول فقط لكنه يراودني كثيرًا مذ عرفتُ أنني لستُ ابنتك البيلوجية، الشيء الغريب هو أنني لم أفكر قط في هوية أبي، ربما لأنني قارنتُ بين ما فعلته أنتِ معي وبين ما فعلته بي المرأة التي كان يفترض بها أن تكون أمي..

أما شعور الأبوة فأنا لم اختبره قط، أخبرتِني من قبل عن السيدة التي كانت تعتني بي قبل انتقالي للعيش معكِ وأذكر أنكِ قلتِ أنه كان لها زوج عجوز لكنني لا أذكره بالطبع ولا أذكر المرأة نفسها، رحمهما اللّه وجعل الجنّة مثواهما.

سامحيني يا أمي...

أعرف أن ثرثرتي هذه تؤلمكِ كثيرًا..لكنها تؤلمني أيضًا..

لكم غصصتُ بها ولكم تحمّلتُ مرارتها بمفردي، وأدرك الآن أنني أحتاج للتخفف منها قبل أن أختنق، كنتُ أتعمد تناسي ألمي في وجودك، ما كان عليّ أن أجعلكِ تشعرين أن الطفلة التي قدمّتِ لها كل حياتك لتسعد لا زالت شقية!

وهكذا كنت أداوي جروحي بمفردي، أهرع إلى الحمام بعد كل وجع لأفرغ ما بداخلي دمعًا ثم أختلي بدفتر مذكراتي ذي الطبلة الذهبية كي أفرغه حروفًا، لأعود إليكِ مبتسمة وأحادثكِ بمرح عن الأشياء الصغيرة المبهجة التي حدثتّ خلال يومي، كثيرًا ما كنتِ تشعرين بحزني وتلحّين لمعرفة

obeikan.com

سببه فاضطر لاختلاق سبب واهٍ.

ما كان من الممكن أن أخبركِ أنني حزينة لأنني سمعتُ والدتكِ- التي يفترض بها أن تكون جدة لي- وهي تنتحب على الهاتف قائلة لـ «عثمان» «هل نسيتَ ما حلّ بي بعدما تركتني؟ ... أختك تجرأتْ وأدخلتْ أبناء الزنا إلى بيتي»، كيف كنتُ سأخبركِ أن إحدى أخواتكِ همستْ لأخرى:

« فلتتحمّل سارة صدمتها حينما تبدأ البنت في سلوك مسلك أمها العاهرة»

كيف كنتُ سأخبركِ أن ثالثتهن تتقزز كلما ناديتها بـ (خالتي) وأنني تلقيتُ رسالة على هاتفي من ابنتها، تخبرني فيها أنها تحبني وتتمنى أن تجمعنا صداقة بالمراسلة لأن والدتها توعّدتها بالقتل إن هي رافقتني!

كيف كنتُ سأخبركِ أن والدكِ رحمه الله كان يتجاهلني بشكلٍ مريعٍ، أقسم أنه كان يعير كلب المنزل إهتماما أكثر منّي! عشتُ بينهم مُنزوية، تجنبتهم لكي أتجنب أذية نفسي وأذيتكِ، كنتُ وحيدة لسنوات طوال، وحيدة إلا منكِ، ويكفي أن أخبركِ بعد كل هذه السنوات أنني تمنيتُ في كثير من الأحيان أن أغادر البيت وأعيش كمتشردة، لكنني كنتُ أتراجع عن أمنيتي

كلما تذكرتُ كلماتكِ يوم أخبرتني باكية أنني لستُ يتيمة صديقتكِ وزوجها كما قلتِ لي من قبل.

لم يُسمح لأحدهم باختيار والديه او اسمه أو يوم ميلاده، كلها أقدار يا صغيرتي، ولن يفيدنا مطلقًا أن نتضجر من أقدارنا، يفيدنا فقط أن نوظّف ما منحنا إياه الله من نعم لنكون أشخاصًا صالحين، وأنا أراهن عليكِ وأثق أنكِ لن تخذليني، لم أشعر يومًا سوى أنك ابنتي يا براءة..

الأمومة ليست بجيناتٍ ودمٍ لكنها ما أشعر به نحوكِ...

لم أكن لأخبركِ بهذا لو لم أكن واثقة أنه سيصلكِ ذات يوم عن طريق شخص آخر، لا ينقّب الناس يا ابنتي إلا عما فيه أذى لبعضهم البعض»، تعرفين يا أمي، حدث أن أحببتُ رجلاً بصمت فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أتجنبه بكل ما كان في وسعي من طرق، فوجئتُ به يلاحقني يومًا بعد يوم ليخبرني في النهاية أنه يحبني، صددته بحزمٍ ضاربة بمشاعرنا وأمنياتنا عرض الحائط، ما كان بوسعي أن أُدخله إلى عالمي وأُدخل معه ذلك التساؤل البغيض عن كونه عالمًا بقصتي أم لا..

opeikan.com

كنتُ متأكدة أن الإجابة هي (لا) وحتى إن كان يعرف وكان خارقًا للعادة لدرجة جعلته يتقبل الأمر فإن الأمر لن يتوقف عنده! كانت قصة الحب ستتحوّل إلى قصة حرب، إلى معركة أعرف أننا سنخرج منها مهزومين وجرحى وسأقع أنا في أسر عذاب لا فكاك منه، المعركة مع أمة كاملة لن تكون متكافئة، أمة تؤمن بحديث مكذوب عن العرق الدساس وتتجاهل كل الآيات والأحاديث الصحيحة التي تخبرنا أننا سواسية إلا فيما اقترفناه بكامل إرادتنا.

لم تكن لديّ طاقة إلا للهرب من كل شيء، كان عليّ أن أنجو بحطامي لأحاول ترميمه في مكان آخر، أحتاج لبداية جديدة يبدو أنها ستكون هنا...

التحقتُ بالجامعة كما أخبرتكِ على الهاتف وسأبحث عن عمل مسائي، أرجوكِ لا تعترضي، أعرف أنكِ سترسلين لي ما يفيض عن حاجتي من المال شهريًا ..لكن حاجاتي ليستْ مادية فقط، أريد أن أقوم بشيء ما لنفسي أريد أن أشعر أنني شخص جيد، شخص جيد خلق بحظ سيء فقاومه وتغلّب عليه.

أدرك أنه ليس من الإنصاف أن أقول أنني سيئة الحظ، يوجد في هذا العالم الملايين مثلي، كانوا ولا زالوا وسيكونون ما دامتْ الحياة مستمرة بما فيها من شرور، لكن الذين حصلوا على أمٍ رائعة مثلك ليسوا بكُثر يا أمي... أعرف ذلك.. وأعرف أنني عاجزة تمامًا عن إيفائك ما تستحقينه لذا فقد فوّضتُ هذا الأمر لربي، وحده سيقدر عليه.

لا شيء يضايقني مُذ أتيتُ إلى هنا سوى شعوري بالذنب نحوكِ، يخيل إليّ أحيانا أنني ابنة عاقة؛ خدعتكِ يا أمي! ما كنتِ لتسمحي لي بالرحيل لو كنتِ تعلمين أنني لن أعود، هل كنتُ أنانية، جاحدة أم أنه العرق القذر الذي يلوثني وقد برز الآن في صورة تنكّر لمعروف سنين طوال، العرق الذي كنتُ أسمع دائما أنه (يمد لسابع جد).

لا أعرف! أنا مشوشة للغاية..أنهكني التفكير حد الإعياء، أرجو فقط أن تغفري لي وأن تعلمي أنني كنتُ مضطرة جدًا، مضطرة لأن أعيش ما تبقّى لي من عمر كإنسان لأنني لم أعد قادرة على تحمل العيش كقاذورة، مضى من عمري أربعة وعشرون عامًا وربما شاء الله أن أعيش مثلها أو أكثر أو

أقل، لكن لو بقي في عمري يوم واحد فأنا أريد عيشه كشخص محبوب أو كشخص متروك وشأنه على الأقل!

كان يكفيني حبكِ، لم أكن بحاجةٍ لعواطف أي شخص آخر لكنهم أبوا إلا أن يغطّوني بشيء من سوادهم، الكلمات الجارحة كانت جارحة وحسب لكن الغمز واللمز، ونظرات الاحتقار كانوا تعذيبًا لا ينتهي ولا يفضي بالموت، تعبتُ يا أمي، أقسم لكِ أنه لو كان بوسعي أن أبقى لبقيت لكنني حقا تعبت، أعيش هنا وكأنني غير مرئية، يطوّقني الضباب أنا وكل الأشخاص العاديين أمثالي، ما دمتُ فتاة لطيفة، لا تؤذي أحدًا ولا تُثير حولها شكوكًا من أي نوعٍ فلا أحد يهتم لأمري أو يسعى للنبش في حطامي كي يعثر على تلك الجذور المتعفّنة ثم يعايرني بها وكأنني أنا المسؤولة عن غرسها بداخلي، لقد نجح الآخرون في منحي شعورًا بكوني ثمرة شهية المنظر لكنها معطوبة من الداخل!

في كل مكان أذهب إليه كان الانبهار هو أول شعور يصلني، يتحدث أي شخص تعرف إليّ للتو- سواء كان شابًا أو فتاة - عن جمال لم يرَ مثله منذ

زمن بعيد، عن لباقة وذكاء وثقافة ولطف، لكن دائمًا ما تحين اللحظة التي يتحوّل فيها الإعجاب الذي كان يملؤ الأعين إلى نظرات تقول (يا خسارة)! ونظرات أخرى تُشعرني أنني شخص ماكر، مخادع، تعمّد إبراز جماله وستر قبحه، و كأنه كان من المفترض بي أن أكون دميمة سيئة الطباع كي يتناسب الأمر مع كوني (ابنة حرام) كما يقولون دائمًا، سرًا وجهرًا ومن خلفي ومن أمامي...

قررتُ ذات يوم بعيد أن أرتدي قناع الجميلة الثرية المغرورة حتى لا يفكر أحدهم أو إحداهن في التعرف إليّ كما أنا ثم يكتشفني فيما بعد كما ولدتّ فتقع الصدمة على كلينا!

و لم أخلع ذلك القناع إلا حينما هبطتّ بي الطائرة حيث أنا الآن، أتيتُ إلى هنا لأحيا كما أنا، لن يعنيني أي شخص بعد اليوم ولن أنتظر أي شيء من أي شخص، سأبدأ في تأسيس حياة جميلة مع نفسي وواثقة أن الله سيكون معي وسيبارك خطاي، أرجوكِ ساعديني بدعواتكِ.

أحبك يا أمي، مجددًا...سامحيني

obeikan.com

خاتمة

على حائط مطلي بلون أنيق هادئ في صالة متوسطة الإتساع توزعتْ بضع صور بترتيب هندسي متقن

- صورة تجمع بين «براءة» و«سارة» في مطار واشنطن دالاس بعدسة «عمر» زميل «براءة «في الدراسة.
- صورة تجمع بين «براءة» و«عمر» في متنزه جريت فولز بعدسة إحدى صديقاتهما.
- صورة تجمع بين «براءة» بثوب الزفاف و«عمر» ببذلته السوداء تتوسطهما «سارة» وعلى جانبيهما والدا»عمر»..»جاك» و«باتريشيا»
- صورة تجمع «براءة «و «عمر»بطفلتيهما «سارا» و«ياسمين»
- صورة تجمع «سارة «و «جاك» و«باتريشيا» بحفيدتيهم

obeikan.com

الكاتبة في سطور

لينة سيف الدين

بكالوريوس علوم الحاسوب.

الخرطوم، السودان.

الإصدارات الأدبية

رواية لمحات

للتواصل مع الكاتبة:

leena_saif.words@hotmail.com

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com